

النظرات (3)

النظرات (3)

مصطفى لطفى المنفلوطى

طبعة 2020م

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لشركة مركز إنسان للدراسات والاستشارات والتدريب والطباعة والنشر
،وعلامتها التجارية (شخايبط)



24 شارع غزة _ المهندسين _ الجيزة

تليفون : +2 01145004994 _ +2 0233031633

info@sha5abet.com

إن شركة مركز إنسان للدراسات والاستشارات والتدريب والطباعة والنشر
،وعلامتها التجارية (شخايبط)

غير مسنولة عن آراء المؤلف و أفكاره وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه
الغلاف: أيمن شاكر

اخراج فنى : عمرو محمد

المدير العام : د.سامح شاكر

رقم الايداع: 2019/23736

I.S.B.N 978-977-6760-83-7

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لشركة مركز إنسان للدراسات
والاستشارات والتدريب والطباعة والنشر ،وعلامتها التجارية (شخايبط) .جميع الحقوق
الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

النظرات

(3)

مصطفى لطفى المنفلوطى



عن المؤلف

مصطفى لطفي المنفلوطي:

أديب مصري، وناطقة في الإنشاء والأدب، تفرد بأسلوب أدبي فذ، وصياغة عربية فريدة في غاية الجمال والروعة، تجلت في كافة مقالاته وكتبه، كما نظم الشعر في رقة وعذوبة، ويعتبر العديد من النقاد كتابيه «النظرات» و«العبرات» من أبلغ ما كُتب بالعربية في العصر الحديث.

ولد «مصطفى لطفي محمد لطفي محمد المنفلوطي» سنة ١٨٧٦م بمدينة منفلوط إحدى مدن محافظة أسيوط، لأب مصري وأم تركية، عُرفت أسرته بالتقوى والعلم، ونبغ فيها الكثير من القضاة الشرعيين والنقباء على مدار مئتي عام.

التحق بكتّاب القرية، فحفظ القرآن الكريم كله وهو في التاسعة من عمره، ثم أرسله أبوه إلى الجامع الأزهر بالقاهرة فظل يتلقى العلم فيه طوال عشر سنوات، حيث درس علوم العربية والقرآن الكريم والحديث الشريف والتاريخ والفقه، وشيئاً من الأدب العربي الكلاسيكي، وقد وجد في نفسه ميلاً جارفاً نحو الأدب، فأقبل يتزود من كتب التراث في العصر الذهبي، كما طالع كلاسيكيات التراث الضخمة وذات التأثير الجلي في الثقافة العربية والإسلامية مثل كتاب: الأغاني والعقد الفريد، وسواهما من كتب التراث.

لم يلبث المنفلوطي، وهو في مقتبل عمره أن اتصل بالشيخ الإمام محمد عبده، فلزم حلقاته في الأزهر، واستمع لشروحاته العميقة لآيات القرآن الكريم، ومعاني الإسلام، بعيداً عن التزمت والخرافات والأباطيل والبدع. وبعد وفاة أستاذه الإمام رجع المنفلوطي إلى بلده، ومكث عامين متفرغاً لدراسة كتب الأدب القديم، فقرأ للجاحظ، والمنتبي، وأبي العلاء المعري وغيرهم من الأعلام، وكون لنفسه أسلوباً خاصاً يعتمد على شعوره وحساسية نفسه.

يتحاكى كثير من الناس بعبقريته الإنشائية، حيث كان يتمتع بحسٍّ مرهف، وذوق رفيع، وملكة فريدة في التعبير عن المعنى الإنساني من خلال اللغة. وقد أصقل هذه الموهبة بشغفه المعرفي وتحصيله الأدبي الجاد، فجاءت كتابته رفيعة الأسلوب، أصيلة البيان، فصيحة المعنى، غنية الثقافة، ندر أن نجد لها مثيلاً في الأدب العربي الحديث.

وقد صعدت روحه إلى بارئها عام ١٩٢٤م، فكان مثال هذه الروح هو بحق الوردة العطرة التي فنيت، والصخرة الجلدة التي بقيت.

المحتويات

	الجزء الثالث
٤٥٥	البيان
٤٦١	الناشئ الفقير
٤٦٩	قتيلة الجوع
٤٧١	الأدب الكاذب
٤٧٥	إيفون الصغيرة
٤٧٩	الملاعب الهزلية
٤٨٥	الشيخ علي يوسف
٤٨٩	العظمة
٤٩٣	الانتقاد
٤٩٧	يوم العيد
٥٠١	من الشيوخ إلى الشبان
٥٠٥	الموتى
٥٠٩	الزهرة الذابذة
٥١٣	الوجهاء
٥١٩	جرجي زيدان
٥٢٥	احترام المرأة
٥٢٩	الانتقام

المحتويات

٥٤٣	الخطبة الصامته
٥٤٥	اللفظ والمعنى
٥٤٩	الآداب العامة
٥٥٣	المؤتمر الإسلامي
٥٥٧	في أكواخ الفقراء
٥٦٣	الضمير
٥٦٥	الماضي والحاضر
٥٦٩	الشيخوخة المتمردة
٥٧٣	عجائز بوشنج
٥٧٧	الأجواء
٥٨١	الفتاة والبيت
٥٨٣	الأربعون

الجزء الثالث

البيان

أعرف أديبًا من أفضل الأدباء في هذا البلد، المصطلعين باللغة وفنونها، الحافظين للكثير الممتع من منظومها ومنثورها، إلا أنه لا يكتب كلمة في صحيفة ولا ينشر في الناس كتابًا، إلا أعجم كتابته وأبهمها، وتعمل فيها تعملًا يأخذ على القارئ عقله وفهمه، فلا يدري أيَّ سبيلٍ يأخذ بين مسالكها وشعابها، وكنت أحسبها غريزةً من غرائزه الغالبة عليه، الأخذة من نفسه مأخذ الطبيعة الثابتة، والملكة الرَّاسخة، فلا سبيل له إلى التخلُّص منها، والنزوع عنها. حتى اطلعت له عند بعض أصدقائه على كتاب صغير كان قد أرسله إليه في بعض الشُّنون الخاصَّة وكتبه بتلك اللغة السَّهلة البسيطة التي يسمُّونها اللغة العادية، فأعجبت بأسلوبه في كتابه هذا إعجابًا كثيرًا، ورأيت أنه أبلغ ما قرأت له في حياتي من كتب ورسائل، وعلمت أنَّ الرجل فصيح بفطرته، قادر على الإبانة عن أغراضه ومراميه كأفضل ما يقتدر مقتدر على ذلك، إلا أنه يتكلَّف الرِّكة والتعقيد في كتابته تكلُّفًا، ويأخذ نفسه أخذًا على ذلك. ولو أنه أرسل نفسه على سجيَّتها فكتب جميع رسائله ومؤلَّفاته بتلك اللغة الجميلة العذبة التي كتب بها كتابه هذا، لكان من أعظم الكُتَّاب شأنًا وأكثرهم نفعًا، وأرفعهم صوتًا في عالم الكتابة والأدب، ولكن هكذا قدَّر له أن يقضي بنفسه على نفسه.

وقرأت منذ أيام لأحد الشعراء المتكلِّفين ديوان شعر فلم أفهم منه غير خطبته النثرية ولم يعجبني فيه سواها، وما أحسبها أفلتت من يده، ولا جاءت على هذه الصُّورة من الجودة والحسن إلا لأنه أغفل العناية بها والتدقيق في وضعها، فأرسلها عفو الخاطر إرسال من يعلم أنه إنما يسأل عن الإجابة في الشعر، لا عن البراعة في النثر، وأنَّ الناس سيغتفرون له ضعف الكاتب أمام قوَّة الشَّاعر، غير عالمٍ أنه كاتب من أفصح الكُتَّاب

النظرات

وأبينهم، ولو شاء لكان شاعراً من أقدر الشعراء وأفضلهم، وأنه ما أحسن إلا حيث ظن الإساءة، ولا أساء إلا حيث ظن الإحسان.

ووالله لا أدري ما الذي يستفيده هؤلاء الأدباء من سلوكهم هذا المسلك الوعر الخشن في أساليبهم الكتابية والشعرية، وتكلف الإغراب والتعقيد فيها، وهم يعلمون أنهم إنما يكتبون للناس لا لأنفسهم، وأنَّ الناس — خصوصاً في هذا العصر؛ عصر المدنية والعمل والحركة والنشاط — أضنُّ بأنفسهم وبأوقاتهم من أن يقفوا الوقفات الطوال أمام بيت من الشعر يعالجون فهمه، أو سطر من النثر يعانون كسر صخور ألفاظه عن كوامن معانيه، ولم لا يؤثر أحدهم إن كان يكتب للمنفعة العامة أن يستكثر من سواد المنتفعين بعلمه وفضله، أو للشهرة والذكر، أن ينتشر له ما يريد من ذلك بين جميع طبقات الأمة عامتها وخاصتها، علمائها وجهلائها. وهل الشعر والكتابة إلا أحاديث سائرة يحدث بها الشعراء والكتَّاب النَّاس ليفضوا إليهم بخواطر أفكارهم، وسوانح آرائهم، وخلجات نفوسهم، وهل يعني المتحدث في حديثه شيء سوى أن يعي عنه الناس ما يقول، وأن يجد بين يديه سامعاً مصغيّاً، ومقبلاً محتفلاً؟

وأي فرق بين أن يجلس الرجل إلى جمع من أصدقائه ليقصَّ عليهم بعض القصص، أو يفضي إليهم ببعض الآراء، فيتلطف في تفهيمهم، وإيصال معانيه إلى نفوسهم، ويفتنُّ في اجتذاب ميولهم وعواطفهم، وبين أن يجلس إلى مكتبه ليعبث إليهم بهذه الأحاديث نفسها من طريق القلم، ولم لا يعنيه في الأخرى ما يعنيه في الأولى؟

ليس البيان ميداناً يتبارى فيه اللُّغويون والحفَّاظ أيهم أكثر مادةً في اللغة، وأوسع اطلاعاً على مفرداتها وتراكيبها، وأقدر على استظهار نودرها وشوانها، ومترادفها ومتواردها، ولا متحفاً لصور الأساليب وأنواع التراكيب، ولا مخزناً لأحمال المجازات والاستعارات، وحقائب الشواهد والأمثال، فتلك أشياء خارجة عن موضوع البيان وجوهره، إنما يعنى بها المؤلفون والمدونون وأصحاب القواميس والمعاجم، وواضعو كتب المترادفات، ومصنفو فقه اللغة وتاريخ أدبها، أما البيان فهو تصوير المعنى القائم في النفس تصويراً صادقاً يمثله في ذهن السامع كأنه يراه ويلمسه لا يزيد على ذلك شيئاً. فإن عجز الشاعر أو الكاتب — مهما كبر عقله وغزر علمه واحتفل ذهنه — عن أن يصل بسامعه إلى هذه الغاية فهو إن شئت أعلم العلماء، أو أفضل الفضلاء، أو أذكى الأذكياء، ولكنه ليس بالشاعر ولا بالكاتب.

ما أشبه الجمود اللغوي في هذه البيئة العربية بالجمود الديني! وما أشبه نتيجة الأول بنتيجة الآخر!

البيان

لم يزل علماء الدين يتشددون فيه ويتنطعون، ويقتطون من هضبتة السماء صخوراً صماء يضعونها عقبة في سبيل المدنية والحضارة؛ حتى صبروه عبثاً ثقيلاً على كواهل الناس وعواتقهم، فمله الكثير منهم، وبرموا به، وأخذوا يطلبون لأنفسهم الحياة الطيبة من طريق غير طريقه، ولو أنهم لانوا به مع الزمان وصروفه، وتمشوا بأوامره ونواهيته مع شئون المجتمع وأحواله، لاستطاع الناس أن يجمعوا بين الأخذ بأسباب دينهم، والأخذ بأسباب دنياهم.

ولم يزل جماعة اللغويين وعبدة الألفاظ والصور يتشددون في اللغة ويتحذلقون، ويتشبهون بالأساليب القديمة والتراكيب الوحشية، ويغالون في محاكاتها واحتذائها، ويأبون على الناس إلا أن يجمدوا معهم حيث جمدوا، وينزلون على حكمهم فيما أرادوا، ويحاسبون الكاتبين والناطقين حساباً شديداً على الكلمة الغريبة والمعنى المتكرر، ويقيمون المناحات السوداء على كل تشبيه لم تعرفه العرب، وكل خيال لم يمر بأذهانهم، حتى ملهم الناس وملوا اللغة معهم، فتمردوا عليهم وخلعوا طاعتهم، وطلبوا لأنفسهم الحرية اللغوية التامة في جميع مواقفهم وعلائقهم، فسقطوا في اللغة العامية في أحاديثهم، وشبه العامية في كتاباتهم، وكادت تنقطع الصلة بين الأمة ولغتها، لولا أن تداركها الله برحمته، فقيض لها هذا الفريق العامل المستنير من شعراء العصر وكتابه الذين عرفوا سر البيان وأدركوا كنهه، فاتخذوا لأنفسهم في مناحيهم الشعرية والكتابية أسلوباً وسطاً معتدلاً جمعوا فيه بين المحافظة على اللغة وأوضاعها وأساليبها، وبين تمثيل روح العصر وتصوير صورة الحياة. ولولاهم لبقيت اللغة في أيدي الجامدين فماتت، أو غلبت عليها العامية فاستحالت.

قال لي أحد الأدباء المتكلمين في معرض الاعتذار عن نفسه وقد عتبت عليه في هذا المنهج الخشن الوعر الذي ينهجه في أسلوبه: أنت تعلم أن الناس في هذا البلد قد ألفوا من طريق خطأ الحس أن ينظروا بعين الإجلال والإعظام إلى كل أسلوب شعري أو كتابي معقدٍ غامضٍ، وإن تفهت معانيه وهانت أغراضه، وبعين الازدراء والاحتقار إلى الأساليب السهلة البسيطة، وإن اشتملت على أشرف الأغراض وأبرع المعاني؛ أي إنهم لا يرون السهولة والانسجام حتى يتوهموا التفاهة والسفولة، ولا يرون الركاكة والمعاطلة حتى يظنوا الحذق والبراعة وسمو المعاني وشرفها، وهي حالة طبيعية في جميع النفوس البشرية أن تزدرى المبذول لها، وتستسني قيمة الممنوع عنها. وليس هذا شأنهم مع

أدباء العصر الحاضر فحسب، بل مع أدباء كل عصر وجيل؛ فهم يسمون البحترى وأبا نواس، والشريف الرضي وأمثالهم شعراء الألفاظ، ويسمون المتنبي، والمعري، وابن الرومي، وأشباههم شعراء المعاني وليس بين الأولين والآخرين فرقٌ في جودة المعاني وشرفها، إلا أنّ الأولين أمطروها على الناس وبعثوها تحت أقدامهم فهانت عليهم، وضمن بها الآخرون ووعروا سبيلها فعظمت في أعينهم، وجلّت في صدورهم. قال: ولقد عرضت السلعتين في سوق الأدب، فكتبت أتفه المعاني وأدونها في أحسن الأساليب وأوعرها فنفتت في تلك السوق نفاقاً عظيماً، وكثر المعجبون بها والمكبرون لها. وكتبت أشرف المعاني وأبرعها في لطف الأساليب وأعذبها، فما أبه لها إلا القليل من الناس، وربما لم يأبه لها أحد، فلم أرُ بداً من أن أنتهج لنفسي في الكتابة الخطة التي أعلم أنها أجدر بي وأجدي عليّ.

فعجبت لرأيه هذا عجباً شديداً، وقلت له: أما هذا الذي تذكره فإنني لا أعرفه إلا لفئة قليلة من القراء فاسدة الذوق، لا يعبا بها عابئ، وليس هذا رأي جمهور المتأدبين، بل ولا رأي العامة من أبناء هذه اللغة. وهب أنّ الأمر كما تقول، فالأدب ليس سلعةً من السلع التجارية لا هم لصاحبها سوى أن يحتال لنفاقها في سوقها. إنما الأدب فن شريف يجب أن يخلص له المتأدبون بأداء حقه والقيام على خدمته إخلص غيرهم من المشتغلين ببقية الفنون لفنونهم. والأدباء هم قادة الجماهير وزعمائهم، فلا يجملُ بهم أن ينقادوا للجماهير وينزلوا على حكمهم في جهالاتهم وفساد تصوراتهم. ولم أزل به حتى أذعن للرأي الذي رأيته له، فحمدت الله على ذلك

ليس من الرأي ولا من المعقول أن ينظم الشعراء ويكتب الكتاب الرسائل في هذا العصر — عصر الحضارة والمدنية — وبين هذا الجمهور الذي لا يعرف أكثر من العمامة إلا قليلاً باللغة التي كان ينظم بها امرؤ القيس، وطرفة، والقطامي، والخطفي، ورؤبة، والعجاج، ويكتب بها الحجاج، وزياد، وعبد الملك بن مروان، والجاحظ، والمعري، في عصور العربية الأولى، فليس عصرنا كعصرهم، ولا جمهورنا كجمهورهم، وأحسب لو أنهم نشروا اليوم من أجدانهم لما كان لهم بدٌّ من أن ينزلوا إلى عالمنا الذي نعيش فيه ليخاطبونا بما نفهم، أو يعودوا إلى مراقدهم من حيث جاءوا.

ليست الأساليب اللغوية ديناً يجب أن نتمسك به ونحرص عليه حرص النفس على الحياة، إنما هي أداة للفهم وطريق إليه، لا تزيد على ذلك ولا تنقص شيئاً.

البيان

يجب أن نحافظ على اللغة باتباع قوانينها والتمسك بأوضاعها ومميزاتها الخاصة بها، ثم نكون أحرارًا بعد ذلك في التصور والتخيل واختيار الأسلوب الذي نريد. يجب أن يَشْفَ اللفظ عن المعنى شفاف الكأس الصافية عن الشراب، حتى لا يرى الرائي بين يديه سوى عقل الكاتب ونفس الشاعر، وحتى لا يكون للمادة اللفظية شأن عنده أكثر مما يكون للمرأة من الشأن في تمثيل الصور والمخائل.

يجب أن يتمثل المعنى في ذهن المتكلم قبل أن يتمثل اللفظ، حتى إذا حسن الأول أفاض على الثاني جماله ورونقه، فاللفظ لا يجمل حتى يجمل المعنى، بل لا مفهوم للفظ الجميل إلا المعنى الجميل.

لو لم يكن للفصاحة قانون يرجع إليه من يريد معرفتها، ومقياس تقاس عليه، لوجب أن يكون قانونها العقلي أن يترك القائل في نفس السامع الأثر الذي يريده. فإن عجز عن ذلك فلا أقل من أن يصور له المعنى القائم في نفسه. فإن لم يكن هذا ولا ذاك فاحتراف أية حرفة من الحرف — مهما صغر قدرها واتضع شأنها — أعود بالنفع على الأمة وأجدى عليها من حرفة القلم.

لا يبك شاعر بعد اليوم ولا كاتب سقوط حظه في الأمة، ولا يقضي حياته ناعياً عليها جهلها وقصورها كلما رآها منقبضة عنه غير حافلة به ولا مصغية إليه، فالأمة قد ارتقت واستنارت، وأصبحت طمّاحة متطلعة، لا يقنعها من قلم الشاعر أن يرن على صفحة القرطاس بدون أن يطربها ويملك عواطفها، ولا من قلم الكاتب أن يسود بياض الصحف بدون أن يثير لها أذهانها، ويغذي عقولها ومداركها، فإن كان لا بدّ باكياً فليبك على نفسه، ولينع عجزه وقصوره، وليعلم أنه لو استطاع أن يكتب للأمة ما تفهم لاستطاعت الأمة أن تفهم عنه ما يقول.

إنني لا ألوم على الركافة والفهامة الأغبياء الذين أظلمت أذهانهم، فأظلمت أقلامهم — وظلمة القلم أثر من آثار ظلمة العقل — ولا الجاهلين الذين لم يدرسوا قوانين اللغة ولم يمارسوا أدبها، ولم يتشبعوا بروح منظومها ومنثورها، ولا العاجزين الذين غلبتهم إحدى اللغات الأعجمية على أمرهم فأصبحوا إذا ترجموا ترجموا ترجمة حرفية ليس فيها مُمَيِّزٌ واحد من مميزات العربية، ولا خاصة من خواصها، وإذا كتبوا كتبوا بأسلوب عربي الحروف أعجمي كل شيء بعد ذلك. فهؤلاء جميعاً لا حول لنا فيهم ولا حيلة، لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا غير ذلك، إنما ألوم المتأدبين القادرين الذين عرفوا اللغة واطّلعو على أدبها، وفهموا سر فصاحتها. وأنقم منهم عدولهم عن المحجة في البيان إلى الجَمَجَمَةِ والعَمَعَمَةِ فيه، وأنعي عليهم نقص القادرين على التمام.

الناسى الفقير

لي ولدٌ وحيدٌ في السابعة من عمره لا أستطيع على حبي إياه وافتتاني به أن أتركه من بعدي غنياً؛ لأنني فقير، وما أنا بأسفٍ على ذلك ولا مبتئسٍ، لأنني أرجو — بفضل الله وعونه ورحمته وإحسانه — أن أترك له ثروة من العقل والأدب، هي عندي خير ألف مرة من ثروة الفضة والذهب.

أحب أن ينشأ معتمداً على نفسه في تحصيل رزقه وتكوين حياته لا على أي شيءٍ آخر، حتى على الثروة التي يتركها له أبوه، ومن نشأ هذا المنشأ وألفَ ألا يأكل إلا من الخبز الذي يصنعه بيده نشأ عزوفاً عفيفاً مترفعاً لا يتطلع إلى ما في يد غيره، ولا يستعذب طعم الصدقة والإحسان.

أحب أن ينشأ رجلاً، ولا سبيل إلى الرجولة إلا من ناحية العمل. وقلما يعمل العامل إلا بسائق من الضرورة، ودافعٍ من الحاجة، وفرق بين الغني الذي يعمل لتنمية ثروته وتعظيم شأنها شرها وفضولاً، وبين الفقير الذي يعمل لتحصيل قوته، وتقويم أود حياته. أحب أن يعيش فرداً من أفراد هذا المجتمع الهائل المعترك في ميدان الحياة، يصارع العيش ويغالبه، ويزاحم العاملين بمنكيهه، ويفكر ويتروى، ويجرب ويختبر، ويقارن الأمور بأشباهها ونظائرها، ويستنتج نتائج الأشياء من مقدماتها، ويعثر مرةً وينهض أخرى، ويخطئ ويصيب أحياناً، فمن لا يخطئ لا يصيب، ومن لا يعثر لا ينهض، حتى تستقيم له شؤون حياته.

ذلك خير له من أن يجلس في شرفةٍ من شرف قصره مطلقاً على العاملين والمجاهدين يمتع نظره بمرآهم كأنما يشاهد روايةً تمثيلية في أحد ملاعب التمثيل. أحب أن يمر بجميع الطبقات، ويخالط جميع الناس، ويذوق مرارة العيش، ويشاهد بعينه بؤس البؤساء، وشقاء الأشقياء، ويسمع بأذنه أنات المتألمين، وزفرات المتوجعين؛

النظرات

ليشكر الله على نعمته إن كان خيرًا منهم، ويشاركهم في همومهم وآلامهم إن كان حظه في الحياة مثل حظهم، ولتنمو في نفسه عاطفة الرفق والرحمة، فيعطف على الفقير عطف الأخ على الأخ، ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم.

أما الغني الذي لم يذق طعم الفقر في حياته فقلما يشعر بآلام الناس ومصائبهم، أو يعطف على بأسائهم وضرائهم. فإن حاول يومًا أن يمد يده بالمعونة إلى بائس أو منكوب، فعل ذلك متفضلاً ممتناً لا راحماً ولا متأماً.

والألم هو الينبوع الذي تتفجر منه جميع عواطف الخير والإحسان في الأرض، وهو الصلة الكبرى بين أفراد المجتمع الإنساني، والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجناسه، بل معنى الإنسانية وروحها وجوهرها، فمن حُرِمَهُ حُرْمَ كُلِّ فُضِيلَةٍ من فضائل النفس، وكل مكرمة من مكرماتها، وأصبح بالصخرة الصلدة أشبه منه بالإنسان الناطق. أحب أن يجوع ليجد لذة الشبع، ويظماً ليستعذب طعم الري، ويتعب ليشعر ببرد الراحة، ويسهر لينام ملاء جفونه؛ أي إنني أحب له السعادة الحقيقية التي لا سعادة في الدنيا سواها.

وما السعادة في الدنيا إلا لمحاتُ كلمحات البرق تخفق حيناً بعد حين في ظلمات الشقاء، فمن لا يرى تلك الظلمات لا يراها. وأشقى الأشقياء أولئك المترفون الناعمون الذين يوافيهم الدهر بجميع لذائذهم ومشتهياتهم، فلا يزالون يمعنون فيها ويتقلبون في جنباتها حتى يستنفدوها، فيستولي على عقولهم مرض السَّامة والضجر، فيتألمون من الراحة أكثر مما يتألم التَّعبُ من النَّعْبِ، ويقاسون من عذاب الوجود أكثر مما يقاسي المحروم من عذاب الحرمان، وقد تدفعهم تلك الحالة إلى الإلمام بمشتهياتٍ غريبةٍ لا تتفق مع الطبيعة البشرية، ولا تدخل تحت حكمها تفريجاً لكربتهم، وتنقيساً عن أنفسهم. وما هؤلاء المساكين الذين نراهم سهارى طوال لياليهم في ملاعب القمار ومجالس الشراب ومواقف الرهان إلا جماعة الفارَّين من سجون السَّامة والملل، يعالجون الداء بالداء، ويفرون من الموت إلى الموت.

أحب أن يكون غنياً بالمعنى الحقيقي لا بالمعنى الاصطلاحي؛ أي أن يكون مستغنياً بنفسه عن غيره لا كثير المال والثراء. وما سُمِّيَ المال غنى إلا باعتبار أنه وسيلة إلى الغنى وطريق إليه، وهو اعتبار خطأ، ما في ذلك ريب؛ فإن أكثر الناس فقراً إلى المال وأشدهم ولعاً بإحرازه وأعظمهم مخاطرةً بكرامتهم وفضائل نفوسهم في سبيله هم الأغنياء، أصحاب المال والثراء، وإن كان في الدنيا شيءٌ يسمى قناعة واعتدالاً فهو في جانب الفقراء

المقيلين أكثر منه في جانب الأغنياء الكثيرين. ولا يزال المرء يعتبر المال وسيلة إلى الحياة وذريعة من ذرائعها حتى يكثر في يده، فإذا هو في نظره الحياة نفسها، يجمعه ولا يدري ماذا يريد منه، ويعبده وهو لا يرجو ثوابه ولا يخشى عقابه، ويستكثر منه وهو على ثقة من نفسه بأنه لا ينتفع بقليله فضلاً عن كثيره. وإذا بلغ المرء في حالته العقلية إلى درجة أن تنقلب في نظره حقائق الكون وتتغير نواميسه، فيرى الرءوس أذناً والأذنان رءوساً، والوسائل غايات والغايات وسائل، فقل على عقله السلام.

لا أكره أن ينشأ ولدي غنياً، ولا أحب أن أعرضه لمخاطر الفقر وآفاته، ولكنني أخاف عليه الغنى أكثر مما أخاف عليه الفقر.

أخاف عليه أن يعتد بالمال اعتداداً كثيراً، ويقدره فوق قدره، ويعتبره الكمال الإنساني كله، فلا يهتم بإصلاح أخلاقه وتهذيب نفسه، وألا يجد من حوله من عُشرائه وخطائه مرآة يرى فيها هناته وعيوبه؛ لأن عُشراء الأغنياء متملقون مدهنون، يطوون سيئاتهم ويزخرفون حسناتهم.

أخاف عليه أن تستحيل نفسه إلى نفسٍ مادية جامدة، لا تفهم من شؤون الحياة غير المادة، ولا تُعنى بشيء سواها، فيصبح رجلاً قاسياً صلباً، ميت النفس والعواطف، لا يرحم بائساً، ولا يعطف على منكوب، ولا يرثي لأمّة ولا يبكي على وطن، ولا يشترك في شأن من الشؤون العامة خيرا وشرها، ولا يعنيه — ما دام راضياً عن نفسه مغتبطاً بحظه — أسقطت السماء على الأرض أم بقيت في مكانها.

أخاف عليه أن يحتقر العلوم والآداب، ويزدري المواهب والعقول والفضائل والمزايا، فيصبح عار أمته وشنارها، ووصمتها الخالدة التي لا تزول، ومن أشرب قلبه حب المال ونزل من نفسه إلى قرارتها، لا يحترم غيره، ولا يقيم إلا لأربابه وزناً، ويخيل إليه أن من عداهم من الناس لا قيمة لهم في الحياة، بل لا حق لهم في الوجود.

أخاف عليه إن تزوج أن يأبى الزواج إلا من غنية يرى أنها هي التي تليق بمقامه ومنزلته، ومن اشترط الغنى في زوجة قلما تنزع نفسه إلى اشتراط شيء سواه، فيسقط في زواجه سقطت يشقى بها طول حياته من حيث لا ينفعه ماله ولا جاهه.

أخاف عليه إن ولد ألا يجد بين أوقاته ساعة فراغ يتولى فيها النظر في تهذيب ولده وتربيته، فيتركه صغيراً في أيدي الخدم، وكبيراً في أيدي عُشراء السوء، فيصبح نكته الكبرى في حياته، وعاره الدائم بعد مماته.

أخاف عليه أن يقضي أيامه ولياليه مروّعاً مذعوراً، خافق القلب، مستطار الفؤاد تقتله الخسارة إن خسر، ويصعقه فوت الربح إن فات، ويطير بنومه وهودئه هبوط

النظرات

الأسعار، ونزول الأسهم، وتقلبات الأسواق، وخسران القضايا، ومنازعات الخصوم، والآفات السماوية، والجوائح الأرضية.

وما حزن الفقير الذي أنفق آخر درهم بيده من حيث لا يعرف له طريقًا إلى سواه على نفسه وعلى مستقبله، بأشد من حزن الغني الشحيح على الدرهم الذي نقص من مليونه، أو الذي كان يؤمل أن يتمم به مليونه فلم يَنحْ له.

وما ليلة البائس المسكين الذي يتصايح أولاده من حوله جوعًا ولا يجد ما يسد به رمقهم، بأطول من ليلة الغني الذي يسقط إليه الخبر بأن سلعة من سلعه قد نفقت، أو أن سهمًا من أسهمه قد نزل.

وحدثني من رأى بعينه من جُنَّ وهو واقف ينظر إلى قصرٍ من قصوره يحترق. وسمعت كثيرًا من حوادث المنتحرين والمصعوقين على أثر النكبات المالية والخسائر التجارية التي لا تفقرهم ولا تصل بهم إلى درجة الإملاق، وكل أثرها عندهم أنها تنقلهم إلى منزلة في الغنى أدنى من منزلتهم الأولى.

أخاف عليه أن يصبح واحدًا من أولئك الوارثين المستهترين الذين لا عمل لهم في حياتهم سوى هدم حياتهم بأيديهم، وهدم ما ترك لهم آباؤهم وأجدادهم من مالٍ وجاه، فأندب حظي في قبري وأقرع السن على أن لم أكن فارقت هذه الحياة لا مال لي فيها ولا ولد.

ولا أزال أذكر حتى الساعة أنني مررت بأحد شوارع القاهرة من بضع سنين، فرأيت في مكان واحد منه منظرين مختلفين: رأيت غلامًا من الوارثين جالسًا بإحدى الحانات يمرح في نعمائه، وآخر من المتشردين نائمًا تحت الرصيف على مقربةٍ منه يضطرب في بأسائه. أما الأول فقد كان جالسًا بين مائدتي شراب وقمار، تسلب الأولى عقله والأخرى ماله، وقد أحاط به جماعة من الخلاء الماكرين يلعبون بعقله لعب الغلمان بالكرة في ميدانها، يضحكون لنكاته، ويؤمنون على أقواله، ويصدقون أكاذيبه، ويتحركون بحركته، ويسكنون بسكونه، وهو يقهقه بينهم قهقهة المجانين، ويصيح صياح الثعالب. وأما الثاني فقد كان عاريًا إلا قليلًا يفتح إحدى عينيه من حينٍ إلى حينٍ كلما رنت في أذنه ضحكات هؤلاء السكارى وضوضاؤهم، ويضم ركبتيه إلى صدره كلما أحس صوت مركبة مارة بجانبه، وقد يبسط كفه أحيانًا وهو مغتمضٌ إن حُيِّل إليه أن يداً تمتد إليه بالإحسان، ولا يد هناك ولا إحسان.

رأيت هذين المنظرين الغريبين المتناقضين، فثارت في نفسي في تلك الساعة عاطفتان مختلفتان، عاطفة البغض والاحتقار للأول، وعاطفة الرحمة والشفقة على الثاني. وقلت

في نفسي: لو كان لي ولدٌ وكان لا بد له من أن يكون أحد هذين الغلامين: إما الوارث الجالس فوق الرصيف ينثر الذهب نثرًا، أو المتشرد النائم تحته يسأل الناس لقمةً فلا يجدها، لفضلت أن أراه بين فئة المتشردين، على أن أراه بين فئة الوارثين؛ لأنني أرجو له في الأولى أن يجد بين الراحمين راحمًا يحسن إليه ويستنقذه من شقائه، ويأخذ بيده في طريق الحياة الطيبة الصالحة، أما في الثانية فإنني لا أرجو له شيئًا.

إنَّ للرحمة طيشًا كطيش القسوة والشدة، وأطيش الراحمين ذلك الذي يستنفد أيام حياته في جمع الثروة لأولاده دائمًا ليله ونهاره لا يهدأ ولا يفتر، من حيث يغفل النظر في شأن تربيته وتعليمهم ضنًا بهم أن يزعج نفوسهم بشيء من تكليف الحياة وأعبائها، فإذا ذهب لسبيله وخلي بينهم وبين ذلك المال الذي جمعه لهم لا يكون لهم من الشأن فيه أكثر مما يكون لجماعة الحمالين في الأثقال التي يحملونها من مكانٍ إلى آخر، فهم ينقلونه من خزائنه شيئًا فشيئًا إلى خزائن الخمارين والمرايين والعاهرين حتى ينفد، فإذا فرغوا منه جلسوا في عرصاتهم المقفرة جلسة الباكي الحزين، صفر الأكف، فارغي الجيوب، مطرقي الرؤوس، لا حول لهم ولا حيلة، قد أضاعوا حياتهم وحياة آبائهم وأجدادهم، وعمدوا في عامٍ واحدٍ أو عامين قرنًا كاملًا مجيدًا من أعلاه إلى أسفله، ولا يعلم إلا الله ماذا يكون شأنهم بعد ذلك.

ولو أن أباهم كان يرحمهم رحمةً حقيقية ويشفق عليهم إشفاقًا صحيحًا لرحمهم من هذا المصير المحزن، وضمن بهم على هذا التراث المشؤم.

يقولون: إنَّ الفقر يدفع إلى الجرائم والقتل وارتكاب السرقات، وأنا أقول: إننا إذا استطعنا أن نفهم الجريمة بمعناها الحقيقي، وألا ننخدع بصور الألفاظ وألوانها، علمنا أنَّ للأغنياء جرائم كجرائم الفقراء بل أشد منها خطرًا وأعظم هولًا. فإن كان بين الفقراء اللصوص والقتلة والشطار والعيارون وقاطعو الطرق، فبين الأغنياء المحتالون، والمزورون، والمغتصبون، والخائنون، والمداهنون، والممالئون، وأصحاب المعامل والشركات الذين يغذون أجسامهم بدماء عمالهم، والتجار الذين يسرقون من الأمة في يومٍ واحدٍ باسم الحرية التجارية ما لا يسرقه منها جميع لصوص البلد وغياروه في شهر كامل، والقوَّام والأوصياء الذين يرثون التركات من دون وارثها، ويأكلون أموال اليتامى والمعتوهين باسم صيانتها والمحافظة عليها، والسماسة الذين يغتالون الأسواق بأجمعها، والمرايون الذين يختلسون الثروات بأكملها، والسياسيون الذين يسرقون الممالك بحذافيرها.

على أنَّ جرائم اللصوصية والسرقة والقتل ليست جرائم الفقر، بل جرائم الغنى، فلولا شح الأغنياء بأموالهم وكذبهم عليها وحيازتها عن الفقراء، لما وجد في الأرض قاتلٌ

النظرات

ولا سارقٌ ولا قاطع طريق. ولا يسرق السارق، ولا يسلب السالب، ولا يَلِصُّ اللص، إلا جزءاً من حقه الذي كان يجب أن يكون له لو كان للمال زكاة، وللرحمة سبيل إلى الأئفدة والقلوب.

ليفتح الأغنياء المدارس، وليبنوا الملاجئ، ولينشئوا المصانع والمعامل للعاطلين والمتشردين، وليتعهدوا المنكوبين والساقطين في ميادين الحياة العامة بالمساعدة والمعونة، فإن وجدوا بعد ذلك لصوصاً أو قتلةً أو مجرمين فليتهموا الفقر ولينعوا عليه جرائمه وآثامه.

لا أريد أن أقول: إنَّ الغنى علة فساد الأخلاق، وإنَّ الفقر علة صلاحها، ولكن الذي أستطيع أن أقوله عن تجربة واستقراء: إنني رأيت كثيراً من أبناء الفقراء ناجحين، ولم أرَ إلا قليلاً من أبناء الأغنياء عاملين.

إنَّ العلوم والمعارف، والمخترعات والمكتشفات، والمدنية الحديثة بأجمعها، حسنة من حسنات الفقر، وثمره من ثمراته، وما المواد الذي كتبت به المصنفات، ودونت به الآثار إلا دموع البؤس والفاقة، وما الآراء السامية والأفكار الناضجة التي رفعت شأن المدنية الحديثة إلى مستواها الحاضر إلا أبخرة الأدمغة المحترقة بنيران الهموم والأحزان، وما انفجرت ينابيع الخيالات الشعرية والتصورات الفنية إلا من صدوع القلوب الكسيرة، والأفئدة الحزينة، وما أشرفت شمس الذكاء والعقل في مشارق الأرض ومغاربها إلا من ظلمات الأكوخ الحقيرة، والزوايا المهجورة، وما نبغ النابغون من فلاسفة وعلماء، وحكماء وأدباء، إلا في مهود الفقر، وحجور الإملاق، ولولا الفقر ما كان الغنى، ولولا الشقاء ما وجدت السعادة.

إنَّ المجتمع الإنساني اليوم ميدان حرب يعترك فيه الناس ويقتتلون، لا يرحم أحدٌ أحداً، ولا يلوي مقبل على مدبرٍ، يَعدُّون ويسرعون، ويتصادمون ويتخبطون، ويأخذ بعضهم بتلابيب بعض، كأنهم هاربون من معركة، أو مفلتون من مارستان، ودماء الشرف والفضيلة تسيل على أقدامهم، وتموج موج البحر الزاخر يغرق فيه من يغرق وينجو من ينجو.

أندرون لم سقطت الهيئة الاجتماعية هذا السقوط الهائل الذي لم تصل إلى مثله في دور من أدوار حياتها الماضية؟ ولم هذا الجنون الاجتماعي النائر في أدمغة الناس خاصتهم وعامتهم، علمائهم وجهلائهم؟ ولم هذه الحروب القائمة، والثورات الدائمة، والقتال المستحضر بين البشر جماعات وأفراداً، وقبائل وشعوباً، وممالك ودولاً؟

الناشئ الفقير

لا سبب لذلك سوى شيء واحد: هو أنَّ الناس يعتقدون اعتقادًا خطأ أنَّ المال معيار السعادة وميزانها الذي توزن به، فهم يسعون إليه، لا من أجل الجمع والادخار، كما يجب أن يكون، بل من أجل القوت وكفاف العيش، والمال في العالم كمية محدودة لا تكفي لماء جميع الخزائن وتهدئة كافة المطامع، فهم يتناهبون به ويتصارعون من حوله كما تتصارع الكلاب حول الجيف الملقاة، ويسمون عملهم هذا تنازع الحياة، أو تنازع البقاء، وما هو بالتنازع ولا التناظر، إنما هو التفاني والتناحر، والدم السائل، والعدوان الدائم، والشقاء الخالد.

والعلاج الوحيد لهذه الحال المخيفة المزعجة أن يفهم الناس ألا صلة بين المال وبين السعادة، وأنَّ الإفراط في الطلب شقاء، كالتقصير فيه، وأنَّ سعادة العيش وهناءه وراحة النفس وسكونها لا تأتي إلا من طريق واحد، وهو الاعتدال.

الآن أستطيع غير خاشٍ لومًا ولا عتبًا أن أقضي للناشئ الفقير على الناشئ الغني قضاء لا مجاملة فيه ولا محاباة، ومن ذا الذي يجامل الفقراء ويحابيهم؟! وأن أقول للناشئ الفقير: صبرًا يا بُنَيَّ وعزاءً، فإنك لم تخلق إلا للعمل، فاعمل واجتهد، ولا تعتمد في حياتك إلا على نفسك، ولا تحصد غير الذي زرعه يدك، فإن لم تجد معلمًا يعلمك فعلك نفسك، والزمن خير مؤدبٍ ومهذبٍ، وإن ضاقت بك المدارس فادرس في مدرسة الكون، ففيها علوم الحياة بأجمعها، وإن كنت ممن لا يعدون وظائف الحكومة ومناصبها غنمًا عظيمًا كما يعدها القعدة العاجزون، فما هو ذا فضاء الأرض أمامك فامش فيه، وفتش عن قوتك كما تفتش عنه الطيور القواطع التي ليس لها مثل عقلك وفطنتك، وحياتك وقوتك، فإن الله لم يخلقك في هذا العالم ولم يبرزك إلى هذا الوجود لتموت فيه جوعًا أو تهلك ظمًا، ولا تصدق ما يقولونه لك من أن الناشئ الغني أسعد منك حالًا، وأوفر حظًا، وإن راقك منظره وأعجبك ظاهره، فلكل نفس همومها وآلامها، وهموم الفقر على شدتها أقل هموم الحياة وأهونها.

وحسبك من السعادة في الدنيا ضمير نقي، ونفس هادئة، وقلب شريف، وأن تعمل بيدك فترى بعينيك ثمرات أعمالك تنمو بين يديك وتترعرع، فتغتبط بمرآها اغتباط الزارع بمنظر الخضرة والنماء في الأرض التي فلحها بيده، وتعهدها بنفسه، وسقاها من عرق جبينه.

قتيلة الجوع

قرأت في بعض الصحف منذ أيام أن رجال الشرطة عثروا على جثة امرأة في جبل المقطم، فظنوها قتيلاً أو منتحراً، حتى حضر الطبيب ففحص أمرها وقرر أنها ماتت جوعاً. تلك أول مرة سمعت فيها بمثل هذه الميته الشنعاء في مصر، وهذا أول يوم سجلت فيه يد الدهر في جريدة مصائبنا ورزايانا هذا الشقاء الجديد.

لم تمت هذه المسكينة في مفازة منقطعة أو بيداء مجهل فنفرع في أمرها إلى قضاء الله وقدره كما نفعل في جميع حوادث الكون التي لا حول لنا فيها ولا حيلة، بل ماتت بين سمع الناس وبصرهم، وفي ملتقى غاديهم برائحهم، ولا بد أنها مرت قبل موتها بكثير من المنازل تطرقها فلم تسمع مجيباً، ووقفت في طريق كثير من الناس تسألهم المعونة على أمرها فلم تجد من يمد إليها يده بلقمة تسد بها جوعتها، فما أفسى قلب الإنسان، وما أبعد الرحمة من فؤاده، وما أقدره على الوقوف موقف الثبات والصبر أمام مشاهد البؤس ومواقف الشقاء!

لم ذهب هذه البائسة المسكينة إلى جبل المقطم في ساعتها الأخيرة؟ لعلها ظنت أن الصخر ألين قلباً من الإنسان فذهبت إليه تبثه شكواها، أو أنّ الوحش أقرب منه رحمة فجاءته تستجديه فضلة طعامه، وأحسب لو أنّ الصخر فهم شكواها لأشكاها، ولو أنّ الوحش ألم بسريرة نفسها لرثى لها وحنأ عليها؛ لأنني لا أعرف مخلوقاً على وجه الأرض يستطيع أن يملك نفسه ودموعه أمام مشهد الجوع وعذابه غير الإنسان.

ألم يلتق بها أحد في طريقها فيرى صفرة وجهها، وترقرق مدامعها، وذبول جسمها، فيعلم أنها جائعة فيرحمها؟!

ألم يكن لها جار يسمع أنينها في جوف الليل، ويرى غدوها ورواحها حائرةً ملتاعة في طلب القوت فيكفيها أمره؟!

النظرات

أفقرت البلاد من الخبز والقوت، فلا يوجد بين أفراد الأمة جميعها من أصحاب قصورها إلى سكان أكوأخها رجل واحد يملك رغيفاً واحداً زائداً عن حاجته فيتصدق به عليها؟

اللهم لا هذا ولا ذاك، فالمال والحمد لله كثير، والخبز أكثر منه، ومواضع الخَلَّات والحاجات بادية مكشوفة يراها الرءون ويسمع صداها السامعون، ولكن الأمة التي ألفت ألا تبذل معروفها إلا في مواقف المفارقة والمكاثرة، والتي لا تفهم من معنى الإحسان إلا أنه الغُلُّ الثقيل الذي يوضع في رقاب الفقراء لاستعبادهم واسترقاقهم، لا يمكن أن ينشأ فيها محسن مخلص يحمل بين جنبه قلباً رحيماً.

لقد كان الإحسان في مصر كثيراً في عصر الاكتتابات والحفلات، وفي العهد الذي كانت تسجل فيه حسنات المحسنين على صفحات الجرائد تسجيلاً يشهده ثلاثة عشر مليوناً من النفوس، أما اليوم وقد أصبح كل امرئ موكولاً إلى نفسه، ومسئولاً أمام ربه وضميره أن يتفقد جيرته وأصدقائه وذوي رحمه، ويتلمس مواضع خَلَّاتهم وحاجاتهم ليسدها، فما هم أولاء الفقراء يموتون جوعاً بين كتبان الرمال وفوق شعاف الجبال من حيث لا راحم ولا معين.

لقد كان في استطاعة تلك المرأة المسكينة أن تسرق رغيفاً تتبلغ به، أو درهماً تبتاع به رغيفاً، فلم تفعل، وكان في استطاعتها أن تعرض عرضها في تلك السوق التي يعرض فيها الفتيات الجائعات أعراضهن، فلم تفعل، لأنها امرأة شريفة تفضل أن تموت بحسرتها على أن تعيش بعارها، فما أعظم جريمة الأمة التي لا يموت فيها جوعاً غير شرفائها وأعفائها!

الأدب الكاذب

كنا وكان الأدب حالاً قائمةً بالنفس تمنع صاحبها أن يقدم على شر، أو يحدث نفسه به، أو يكون عوناً لفاعليه عليه، فإن ساقته إليه شهوةً من شهوات النفس، أو نزوةً من نزوات العقل، وجد في نفسه عند غشيانه من الممض والارتماض ما ينغصه عليه ويكدر صفوه وهنائه. ثم أصبحنا وإذا الأدب صور ورسوم، وحركات وسكنات، وإشارات والتفاتات، لا دخل لها في جوهر النفس، ولا علاقة لها بشعورها ووجدانها؛ فأحسن الناس عند الناس أدباً وأكرمهم خلقاً وأشرفهم مذهباً من يكذب، على أن يكون كذبه سائغاً مهذباً، ومن يخلف الوعد على أن يحسن الاعتذار عن إخلافه، ومن يبغض الناس جميعاً بقلبه على أن يحبهم جميعاً بلسانه، ومن يقترف ما شاء من الجرائم والذنوب على أن يحسن التخلص من نتائجها وأثارها. وأفضل من هؤلاء جميعاً عندهم أولئك الذين برعوا في فن «الأدب العالية»؛ أي فن الرياء والنفاق، وتفوقوا في استظهار تلك الصور الجامدة التي تواضع عليها جماعة «الظرفاء» في التحية والسلام، واللقاء والفرق، والزيارة والاستزارة، والمجالسة والمنادمة، وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالباً إلى صغر النفس وإسفافها أكثر مما يرجع إلى أدبها وكمالها. فكأن الناس لا يستنكرون من السيئة إلا لونها، فإذا جاءتهم في ثوب غير ثوبها أنسوا بها وسكنوا إليها. ولا يعجبهم من الحسنه إلا صورتها، فإذا لم تأتهم في الصورة التي تعجبهم وتروقهم عافوها وزهدوا فيها؛ أي إنهم يفضلون اليد الناعمة التي تحمل خنجراً على اليد الخشنة التي تحمل بكرة، ويؤثرون كأس البلور المملوءة سماً على كأس الخزف المملوءة ماءً زلاًلاً.

ولقد سمعت بأذني من أخذ يعد لرجل من أصدقائه من السيئات ما لو وزع على الخلق جميعاً للوث صحائفهم، ثم ختم كلامه بقوله: وإنني على ذلك أحبه وأجله لأنه رجل «ظريف»! وأغرب من ذلك كله أنهم وضعوا قوانين أدبية للمغازلة والمعاقرة والمقامرة،

النظرات

كأن جميع هذه الأشياء فضائل لا شك فيها، وكأن الرذيلة وحدها هي الخروج عن تلك القوانين التي وضعت لها. وما عهدنا ببعيد بذلك القاضي المصري الذي أجمع الناس في مصر منذ أيام على احتقاره وازدراءه، لا لأنه لعب القمار؛ بل لأنه تلاعب بأوراق اللعب في أحد أندية القمار، وسموه لصًا دنيئًا، والقمار لصوصيةً من أساسه إلى ذروته.

أعرف في هذا البلد رجلين يجمعهما عملٌ واحد، ومركز واحد: أحدهما خير الناس، والآخر شر الناس، وإن كان الناس لا يرون رأيي فيهما.

أما الأول فهو رجل قد أخذ نفسه منذ نشأته بمطالعة كتب الأخلاق والآداب ومزاولتها ليله ونهاره، فقرأ فيها فصول الصدق والأمانة والعفة والزهد، والسماحة والنجدة والمروءة والكرم، وقصص السمحاء والأجواد والرحماء والمؤثرين على أنفسهم، وافتتن بتلك الفضائل افتتانًا شديدًا، ثم دخل غمار المجتمع بعد ذلك وقد استقر في نفسه أن الناس قد عرفوا من الأدب مثل ما عرف، وفهموا من معناه مثل ما فهم، وأخذوا منه بمثل الذي أخذ. فغضب في وجه الأشرار، وابتسم في وجه الأخيار، والأولون أكثر عددًا، وأعظم سلطةً وجاهًا، فسمي عند الفريقين شرًا متوحشًا. وامتدح إحسان المحسن، وذم إساءة المسيء، والمحسنون في الدنيا قليلون، فسمي وقحًا بذئيًا — حتى بين المحسنين — وبذل معروفه للعاجز الخامل، ومنعه القادر النابه، فلم يشعر بمرغفه أحدًا، فسمي بخيلًا، واعتبر الناس بقيمهم الأدبية، لا بمقاديرهم الدنيوية، فلقي الأغنياء والأشراف بمثل ما يلقي به العامة والدهماء، فسمي متكبرًا. وقال لمن جاءه يساومه في ذمته: إني أحبك ولكني أحب الحق أكثر منك، فكثرت أعداؤه وقل أصدقاؤه.

أما الثاني فأقل سيئاته أنه لا يفي بوعد يعده، ولكنه يحسن الاعتذار عن إخلاف الوعود، فلا يسميه أحد مخلفًا. وما رآه الناس في يوم من أيامه عاطفًا على بائس أو منكوب، ولكنه يبكي لمصاب البائسين والمنكوبين، ويستبكي لهم؛ فعد من الأجواد السمحاء. وكثيرًا ما أكل أموال اليتامى وأساء الوصاية عليهم، ولكنه لا يزال يمسح رءوسهم، ويحتضنهم إلى صدره في الجامع والمشاهد، كأرحم الرحماء وأشفق المشفقين؛ فسمي الوصي الرحيم. ولا يفتأ ليله ونهاره ينال من أعراض الناس ويستنزل من أقدارهم، إلا أنه يخلط جدّه بالهزل، ومرارته بالحلاوة، فلم يعرف الناس عنه شيئًا سوى أنه الماجن الظريف.

ذلك هو الأدب الذي أصبح في هذا العصر رأيًا عامًّا يشترك فيه خاصة الناس وعامتهم، وعقلاؤهم وجهلاؤهم، ويعلمه الوالد ولده والأستاذ تلميذه، ويقتتلون اقتتالًا

الأدب الكاذب

شديدًا على انتحاله والتجمل به، كما يقتتلون على أعز الأشياء وأنفسها، حتى تبدلت الصور، وانعكست الحقائق، وأصبح الرجل المخلص أخرج الناس بصدقه وإخلاصه صدرًا، وأضلهم بهما سبيلًا، لا يدري أيكذب فيسخط ربه ويرضي الكاذبين؟ أم يصدق فيرضي نفسه ويسخط الناس أجمعين؟ ولا يعلم أيهجر هذا العالم إلى عزلة منقطعة يقضي فيها بقية أيام حياته غريبًا شريدًا؟ أم يبرز للعيون فيموت همًّا وكمدًا؟

يجب أن يكون أدب النفس أساس أدب الجوارح، وأن يكون أدب الجوارح تابعًا له وأثرًا من آثاره، فإن أبى الناس إلا أن يجعلوا أدب الحركات والسكنات أساس صلاتهم وعلائقهم، وميزان قيمهم وأقدارهم، فليعترفوا أن العالم كله مسرح تمثيلي، وأنهم لا يؤدون فيه غير وظيفة الممثلين الكاذبين.

إيفون الصغيرة

مترجمة

ماتت وكأنها لم تمت، ليس على وجهها أثر واحدٌ من آثار الآلام التي قاستها في مرضها، يحسبها الرائي نائمةً نومًا هادئًا لذيذًا، ويخيل إليه أنه يسمع صوت أنفاسها المترددة، ويرى هبوط صدرها وارتفاعه.

أين صفرة الموت ونحوه؟ أين آلام النزاع وشدائده؟ أين الغضون التي خلفتها الأوجاع فوق جبينها، والدوائر الزرقاء التي رسمتها حول جفنيها؟ لقد مات كل ذلك بموتها، فعاد لها رونقها وبهاؤها، وأصبحت كأنما قد خلقت الساعة ولما تنبعث الروح في جسدها.

بهذا الوجه الجميل المشرق كانت جالسةً منذ أيام قلائل أمام المدفأة باسمه مطمئنة تلاعب هرتها، وبهذا الفم الأرجواني القاني كانت تغني أمام قفص عصفورها أنشودة السعادة والحياة، وبهاتين اليدين البيضاوين اللينتين كانت تقطف أزهار الربيع وتقدمها هدية إلى أبيها الشيخ، أما اليوم فقد انقضى ذلك كله؛ لأن حياتها قد انقضت.

آخر كلمةٍ نطقت بها قبل موتها: «سأموت الساعة فائتوني بعصفوري أودعه!» فأتوها بقفص عصفورها وعلقوه بقائم سريرها، فظلت تنظر إليه باسمه متطلقةً، وظل العصفور يلعب ويغرد تغريدًا شجيًا، وهو لا يعلم أنه ينشد فوق رأسها أنشودة الموت. وهنا وقف الشيخ الذي تبناها بجانب فراشها واجمًا حزينًا، مشرد اللب، ناهل العقل، ومد يده إلى يدها الضعيفة الواهية التي كانت بالأمس عكاز شيخوخته، وسند حياته، فأخذها ووضعها على صدره، كأنما يريد أن يمد حياتها بتلك البقية الباقية في

النظرات

قلبه من الحياة لتعيش من بعده ولو ساعة واحدة حتى لا يراها تموت بين يديه. وظل على حاله تلك هنيهة، ثم التفت فجأة إلى أصدقائه وقال لهم: ها هي ذي الحرارة قد بدأت تدب في جسمها شيئاً فشيئاً، فنظروا إليه أسفين محزونين، ثم نكسوا أبصارهم، وأسبلوا مدامعهم، فظل يدير بينهم عيوناً حائرةً، ويتنقل بنظراته هاهنا وهاهنا، كأنما يسألهم المعونة على أمره، ومن ذا الذي يعين على القدر، أو يعترض سهم المنية القاتل دون رميته؟

وما هي إلا لحظة حتى شعر أن يدها تجذب يده، فانتفض وحنا عليها، فطوقته بذراعيها الضعيفتين وضمته ضمةً كانت فيها نفسها.

إنا لله وإنا إليه راجعون، ماتت إيفون الصغيرة! ماتت الطفلة الوديدة الجميلة! ماتت الفتاة الرزينة الصابرة! في سبيل الله نجمٌ تلاً في سماء الحياة لحظة ثم هوى، وغصنٌ أزهر في روض المنى ساعةً ثم ذوى، وقدرح من البلور لم تكد تلمسه الشفاه حتى انكسر، وعقدٌ من اللؤلؤ لم ينتظم في سمطه حتى انتثر.

هذه الغرف التي طالما أنارتها بابتساماتها حتى في الساعة التي تختفي فيها جميع الابتسامات، والحديقة التي كانت تقضي فيها كل يوم بضع ساعاتٍ من ليلها أو نهارها تلاعب أطيافها، وتقطف أزهارها، وتتعهد أشجارها، والمماشى التي كانت تخطر على حصبائها فيصيرها شعاع خديها ياقوتاً ومرجاناً، قد خلت جميعها منها، وهيهات أن يسعدنا الحظ برويتها بعد اليوم.

كانت إيفون جميلة الخلق، طيبة النفس، نقية الضمير، تحب الأحياء جميعهم، ناطقهم وصامتهم، فلا تبذل من ودها لهرتها المريضة أقل مما تبذل منه لأبيها الشيخ العجوز. ولا تتودد إلى الشيوخ الفنانين أصدقاء أبيها وسجرائه أكثر مما تتودد إلى وافد غريب يهبط قريتها للمرة الأولى في حياته. وما علموها قط اختلفت مع فتى أو فتاة من تلاميذ مدرستها؛ لأنها كانت تستهوي الطيب منهم بلطفها وأدبها، والخيب بعفوها وصفحها.

وهي وإن لم تكن تعلم أنها لقيطة فإن من كان ينظر في عينيها ويرى ذبولهما وانكسارهما ولمعانها الذي يشبه لمعان الدمع الرقراق، يخيل إليه أنها قد ألهمت ما كتبه الناس عنها، وأنها كانت تعلم أنها لا تعيش في بيت أبيها بوصاية جدّها كما كانوا يقولون لها، بل في بيت محسن كريم لا يعرف من تاريخها ولا من أمر ميلادها شيئاً. وكانت لا تزال تتراءى بين شفيتها ابتسامة حلوة هي الرقية التي كانت تفتح بها

إيفون الصغيرة

أقفال القلوب، ثم تنزل فيما تشاء منها المنزلة التي تريدها. ولم تكن ابتسامتها ابتسامة التصنع والتكلف التي يرثها أكثر الفتيات عن أمهاتهن، بل ابتسامة الحب والإخلاص والحنو والعطف.

لذلك عجل الموت إليها؛ لأن سكان السماء لا يستطيعون أن يعيشوا طويلاً على ظهر الأرض.

دقت أجراس الكنيسة تنعاه فلم تسمعها، ولو سمعتها لاهتزت لها في سريرها؛ شوقاً ولهفة كما كان شأنها في حياتها. ثم جاءت ساعة الدفن فحملوها على أيديهم ومشوا بها حتى وصلوا إلى الكنيسة فوضعوا نعشها في ركن من أركانها، ثم اجتمعوا حولها يودعونها الوداع الأخير. فبكاها الشيوخ الذين كانوا يحبونها ويأسون بها، والفتيان والفتيات من تلاميذ مدرستها، والنساء اللواتي كن يحببها من أجل حبها أبناءهن. وبكاها أكثر من هؤلاء جميعاً ذلك الشيخ المسكين؛ لأنها كانت كل دنياه، فخرها في ساعة واحدة.

وظل كثيرٌ من الوقوف يردد ذكراها، فيقول أحدهم: طالما رأيتها في هذا الركن نفسه جالسةً وحدها وببدها الكتاب المقدس تتلو آياته. ويقول الآخر: لقد دخلت الكنيسة ليلةً فرأيتها هائمةً وحدها في الظلام الحالك تحت هذه الأقبية، فعجبت لصلاحها وتقواها. وتقول امرأة: لقد عثرت ابنتي يوماً من الأيام في منصرفها من مدرستها ببعض الأحجار عثرة برحت بها، فاحتلمتها على ظهرها حتى جاءت بها إلى المنزل. وتقول أخرى: لقد كنت أراها تمر كل يوم بجارتنا فلانة المسكينة فتعطيها رغيفاً من طعامها، ثم تستمر أدرجها إلى مدرستها.

وهكذا ظل كل منهم يذكر ما يعرف عنها حتى حانت ساعة الدفن، فعلت الأصوات بالبكاء، ثم غيَّبوها في قبرها وحنَّوا عليها التراب، وكان الليل قد أظلم المكان بجناحيه وساد فيه سكون موحش رهيب، فانصرفوا مطرقين واجمين يقولون:

وا رحمتهاه لها، لقد خرجت من الدنيا غريبةً كما وفدت إليها.

الملاعب الهزلية

كنت آليت على نفسي منذ أعلنت هذه الحرب — قبحها الله وقبح كل ما تأتي به — ألا أكتب كلمة في صحيفةٍ سيارةٍ في شأنٍ من الشؤون العامة خيرا وشرا حتى ينقضي أجلها. وأن أترك هذا القلم هادئاً مطمئناً في مرقدِه مدرجاً في ذلك الكفن الأبيض الرقيق المنسوج من خيط العنكبوت، حتى يأتي ذلك اليوم الذي يستطيع فيه أن ينبعث كما يريد لا كما يراد منه. ولكن نازلاً نزل بهذا المجتمع المصري منذ عام أو عامين لم أحفل به في مبدئه ولم ألق له بالألأ، وعدته في النوازل الصغيرة المترددة التي لا تلبث غيومها أن تنعقد في سماء البلد حتى تهب عليها نسمة من نسَمات الروح الإلهي فتنتشع، ولكن ها قد مضى العام والعامان وهو باقٍ في مكانه لا يتحول ولا يتحلل، بل تزداد قدمه على الأيام ثباتاً ورسوخاً، وأحسبه سيبقى في مستقبل أيامه أضعاف ما بقي في ماضيها إن لم تُثر عليه — معشرَ الكُتَّاب — حرباً شعواء تهز جدرانَه هزاً، وتدكه دكاً، وتلحق أعاليه بأسافله.

لذلك كتبت هذه الكلمة غير مبالٍ بتلك الأليَّة التي كنت آليتها، فلعل أصدقائي من أفاضل الكتاب يساعدونني في هذا الشأن الذي إن عجزنا عنه اليوم فما نحن بقادرين عليه غداً.

نزلت بالأمة المصرية نازلة تلك المقادر العامة التي يسمونها الملاعب الهزلية، وما هي في شيء من الهزل ولا الجد، ولا علاقة لها بالتمثيل والتصوير، ولا بأي فن من الفنون الأدبية، فأقبل عليها الناس إقبالاً عظيماً، وأغرموا بها غراماً شديداً، فليقبلوا عليها ما شاءوا، وليفتنوا بها ما أرادوا، ولكن فريفاً واحداً من الأمة هو الذي نضن به على تلك

النظرات

المواطن الساقطة أن تطأها قدمه، أو تظلل سماؤها رأسه، لأننا نضن به على كل منقصة في العالم تزرى به، أو تنال من كرامته.

ذلك الفريق المضمون به وبكرامته هو أنتم معشر الطلبة المصريين إخوتنا وأبناءنا، وعنوان مجدنا وشرفنا، وصورة وجودنا وحياتنا، ومناط أمانينا وآمالنا. فإذنوا لكتاب من كتابكم، وصدق من أصدقائكم، أن يحادثكم قليلاً في هذا الشأن كما يحادث الأب ولده، أو الأخ أخاه، لا قاسياً ولا متجبراً، بل عائباً متلطفاً. وأمله عظيم أن ينتهي الحديث بينه وبينكم على ما يحب لكم، وما يعتقد أنكم تحبون لأنفسكم.

الحق أقول: إنَّ الحياء يكاد يعقد لساني بين أيديكم فلا أدري كيف أحدثكم، ولا ماذا أقول لكم؟

أعظكم في أمر أنتم تعلمون من نتائجه وآثاره وسوء عقابه مثل ما أعلم؟ أو أدعوكم إلى اجتناب سيئة لا أحسب أن بين كباركم وصغاركم من يجهل أنها السيئة العظمى التي لم ترزأ الأمة بمثلها في حاضر تاريخها أو ماضيه؟ أو أقول لكم: إنَّ هذه الأماكن التي تطؤها أقدامكم إنما هي مقابر المجد والشرف، ومدافن الفضائل والأخلاق، ومصارع الأعراض والحرمان؟ وهل غاب ذلك عن علم أحد منكم فأعلمكم منه ما لا تعلمون؟!

لا يجهل أحد منكم شيئاً مما أقول، ولكنه الشباب ما زال يغري الضعيف العاجز عن احتمال سلطانه وسيطرته بالإقدام على تلك المخاطر المهلكة، فيمضي إليها قدماً، لا يجهل مكان الخطر منها، ولكنه يعجز عن مغالبة نفسه ومناورتها حتى يتردى فيها، وربما كان هذا هو كل الفرق بيني وبينكم.

إنني لا أرى في هذه المجامع التي تفتتون بها وتتهافتون عليها حسنة تغتفر سيئة، أو جمالاً يفي بقبح، أو خيراً يعزي عن شر، فتمثيلها سخييف بارد لا يستطيع من أوتي حظاً قليلاً من سلامة الذوق أن يصبر نفسه ساعة واحدة على النظر إليه، ومُلحها ثقيلة مستبشعة، لو نطق بها ناطق في مجتمع من المجتمعات الخاصة ثم قلب نظره في وجوه الجالسين حوله لرأى في ابتسامات السخرية المترققة في شفاههم ما يذيبه حياءً وخجلاً، وأناشيدها سوقية مبتذلة في موضوعها، وصورة أدائها لا يطرب لملئها إلا أصحاب الأذواق العامية الخشنة الذين يطربون لنشيد الأذكار وطبول الزار وتعداد النائحات وضجيج الباعة في الأسواق، فماذا بقي فيها من وجوه الحسن بعد ذلك؟

الملاعب الهزلية

بقي فيها الهزء والسخرية بالطبقات الشريفة العاملة في الأمة كالفلاحين آباءنا وأولياء نعمتنا، والشيوخ حفظة ديننا وأئمة لغتنا، والمحامين والأطباء والمعلمين أفاضل الأمة وعيونها، وغيرهم من طبقات الأمة كالصناع والخدم والأكارين وأمثالهم. بل بقي ما هو شر من هذا جميعه، وهو تمثيل الشهوات البدنية والنفسية بجميع ألوانها وضروبها على مشهد من رجالنا ونسائنا وأطفالنا، وتصويرها بتلك الصورة القبيحة التي ترخى على مثلها الستور، وتقام من حولها الدعائم والجدران. فلو أن غريباً وفد إلى هذا البلد وهو لا يعلم من شأنه شيئاً، فذهب إلى مكان من تلك الأمكنة ليرى في مرآته صورة الأمة ممثلة في مسارحها الوطنية، لقضى عليها للنظرة الأولى بأنها أخط الأمم وأدناها. ذلك إلى ما يسمعه فيها من ألفاظ السب والشتيم، وجمل الفحش والهجر التي لا يطرق أذنه مثلها في موقف من مواقف حياته، أو مشهد من مشاهدنا، إلا إذا قدر له أن يتغلغل بنفسه يوماً من الأيام في تلك الأحياء العامة الساقطة حتى يصل إلى «عرب اليسار» أو «عشش الترجمان» فيسمعها هناك في مشاجرات القرادين ومهاترات الشحاذين.

ولقد قال لي أحد الأصدقاء الظرفاء مرة: إنَّ شتائم «أم شولح» قد انتقلت إلى بيتي ولا أعرف كيف انتقلت إليه، فإني أسمع الكثير منها منذ أيام يتردد في أفواه الأطفال هازلين، وفي أفواه الخدم جادين.

أتدرون أيها الأصدقاء من هم أولئك الذين يسمون أنفسهم ممثلين، ويسمون ما يهزون به في مسارحهم روايات، والذين يدعونكم — معشر المتعلمين الراقين — إلى حضور مجامعهم باسم الآداب والفنون؟

لو أن جماعة من الزامرين وآخرين من الطباليين وآخرين من القرادين، وجماعاتٍ غيرهم من الرمالين والمداحين، والصفاعين والبهلوانية، والحواة والرقاة، وبقية السائلين المستجدين الذين يمرّون بأبواب المنازل كل يوم ضاحين صارخين فلا نلقي لهم بالاً، ولا نعيّهم أدناً — اتفقوا فيما بينهم على أن يكوّنوا جماعة واحدة تعمل يدًا واحدة في مكان واحد، لكانوا هم بعينهم جوق كشكش، والبربري، وشرفنتح، لا فرق بينهم وبينهم سوى أن أولئك يقفون بأبوابنا ضارعين مبتهلين يقنعون باللقمة، ويجتزون بالشربة، وهؤلاء يأبون إلا أن تقف على أبوابهم وتتعلق بأستارها فلا يفتح لنا حجابهم إلا إذا دفعنا الإتاوة المضروبة علينا.

وألف كلمة سمعتها في هذا الشأن قول بعض المفكرين: «كان الشر مفرقاً في أنحاء البلد فجمعه كشكش في مكان واحد.»

النظرات

فهل تسمح لكم نفوسكم أيها الأصدقاء — وأنتم عيون الأمة اليقظة، وعقولها المفكرة — أن تنخدعوا بالأعيب هؤلاء الخبثاء المحتالين فترفعوها بأيديكم إلى هذه المرتبة العالية التي لم يخلقوا لها، ولا يمتون إليها بسبب من أسباب العلم أو الذكاء أو الشرف أو الخلق؟ وما هم أولاء نوابغ الممثلين في أمتكم أشقياء بائسون لا يكادون يجدون بين ظهرانيكم ما يقيمون به أودّ عيشهم، أو يعينهم على ما هم بسبيله من خدمة الفن والقيام عليه.

من الذي يذهب لمشاهدة التمثيل الجدي الشريف في مسارح أبيض ورشدي وعكاشة وأمثالهم إن كنتم أنتم لا تذهبون إليها؟

ومن هو أولى بها من بعدكم إن قطعتم صلتكم بها؟
أعجبكم ألا يرى الزائر لتلك المسارح الشريفة حين يزورها غير العامة والسوقة والأميين والجاهلين، فإذا فتش عنكم في مكان آخر غيرها رآكم مزدحمين في مراقص كشكش والبربري وشرفنطح وأمثالها راضين عن مقامكم فيها، مغتبتين بسفاسفها وهذياناتها؟!

ألا تخشون أن يستنتج مستنتج منهم بعد ذلك وقد راعه هذان المشهدان الغريبان — مشهدكم في الأجواق الهزلية الساقطة، ومشهد العامة والسوقة في الأجواق الجدية الشريفة — أن الأمة المصرية أمة غريبة الشأن، يفسدها العلم ويصلحها الجهل؟ أو أن يتطرف متطرف منهم في رأيه فيقول: ليت الأمة عاشت جاهلة عمياء، موفورا لها حظها من الأخلاق والآداب؛ فذلك خير لها من علم يهوي بها في مهواة الشقاء والعار.

لقد رأيت في حياتي صنوف الحيل والكيد، وضروب السماحة والوقاحة، فلم أرَ بين المحتالين والمتوقحين من هو أعظم كيدًا ولا أسمى وجهًا من هؤلاء القوم.

إنهم يحاولون دائمًا أن يلبسوا مفاستهم وشروهم ثوب الفضيلة والجِدِّ، وهو وإن كان ثوبًا شفافًا ينم عما وراءه، إلا أنه يكفيهم للذود عن أنفسهم في موقف الجدل والمناظرة، كما يكفي البرقع الشفاف المرأة المتهتكة للدخول في سلك المخدرات المتحجبات. يمثلون الفلاح أبيض تمثيل، ولا يتركون مفسدة من المفاست ولا رذيلة من الرذائل إلا ويلصقونها به. وينشدون مختلف الأناشيد في السخرية بشكله، والهزء بصفاته وأعماله، ثم لا يخجلون أن يقولوا بعد ذلك في بعض تلك الأناشيد: «ما دام بلادنا زراعية، حبوا الفلاح إن كنتوا تحبوا وطنكم.»

وينتقدون في رواياتهم فساد الرجال وخلاعة النساء، وينقمون على المصري تبديد أمواله في سبيل شهواته. وليس للنساء في مسارحهم عمل سوى إغراء الشبان وإغوائهم

الملاعب الهزلية

وإفساد عقولهم وابتزاز أموالهم في الساعة التي تمثل فيها هذه الروايات وتلقى هذه الأقوال!

ويهدمون اللغة العربية هدمًا بهذه اللهجة العامية الساقطة التي يكتبون بها رواياتهم، وينظمون بها أناشيدهم، وينشرونها في كل مكان، ويفسدون بها الملكات اللغوية في أذهان المتعلمين. ثم يزعمون بعد ذلك أنهم أنصار اللغة العربية وحماة، فيقولون بتلك اللهجة العامية الساقطة: «مالها لغتنا العربية، آل همجية، يادي المصيبة يادي العار، فشر دي لغة المدنية، اتمسكوا بها صغار وكبار.»

ولا يستحيون أن يجمعوا في نشيد واحد من رواية واحدة بين قولهم: «دا أنا أبيع هدومي عشان بوسة، من خدك القشطة يا ملبن، يا حلوة زي البسوسة، يا مهلبية تمام وأحسن.» وبين قوله: «مصر يحميك ربك، ما تشوفي إلا أيام سعدك!»؛ أي أنهم يصفعون الأمة على وجهها هذه الصفعات المؤلمة ثم يحاولون أن يترضوها بعد ذلك بترديد كلمات «الوطنية» و«حب وطنك» و«مت في سبيل الأوطان» وأمثالها من الكلمات العذبة الجميلة التي لا معنى لها في أفواههم إلا أنهم يعتقدون أن المصريين قد بلغوا من الغفلة والبله مبلغًا لا يبلغه أطفال المكاتب ولا سكان المارستانات.

لا أرى لكم — معشر الطلبة المصريين — أمام هذه النازلة العظمى التي نزلت بنا إلا أن ينتدب فريق من عقلاتكم نفسه لنصيحة إخوانه بالامتناع عن الذهاب إلى تلك الملاعب، وشرح مضارها وسيئاتها لهم، فإن امتناع فريق منكم يؤثر على فريق آخر، وهكذا حتى يصبح في عرفكم جميعًا أن الدخول إلى تلك الأماكن عارٌ يخجل مرتكبه من الظهور به بين أصدقائه ومعارفه.

نحن في حالة نحتاج فيها إلى أن يعلم الناس عنا في كل مكان أننا أمة أخلاق وآداب. وأن في نفوس أفرادنا من الصفات والمزايا ما يرفعنا إلى مصاف الأمم العظيمة، ومقياس عظمة الأمم عند العالم إنما هو بصفاتها ومزاياها قبل أن يكون بأي شيء غير ذلك. فإن فات آباءنا أن يورثونا خلق العظمة والإباء في عهدهم، فلنتخلق به نحن لنورثه أبناءنا من بعدنا.

إنكم لا تذهبون في الحقيقة إلى هذه الأماكن وحدكم، بل يذهب إليها معكم إخوانكم وأخواتكم، وبقية أفراد أسرکم؛ لأنكم تقصون عليهم عند عودتكم منها ما شاهدتم، وتروون لهم ما سمعتم، فكأن سكان البلد جميعًا رجالًا ونساء، كبارًا وصغارًا، يجتمعون في هذه البؤر الفاسدة في ساعة واحدة. فهل يستطيع متصور أن يتصور خطرًا على الأمة وعلى أخلاقها وآدابها أعظم من هذا الخطر؟

النظرات

إنني لا أدعوكم إلى الامتناع عن الإلمام بهذه المقاذر العامة من أجل أنفسكم فقط، بل من أجل إخوتكم وأخواتكم اليوم، ومن أجل أبنائكم وأحفادكم غدًا، ومن أجل مستقبل الأمة المصرية كلها، الذي أعتقد أنه أمانة في أيديكم، ووديعة موكولة إلى كرم نفوسكم، وشرف ضمائركم.

اهدموا هذه الأماكن هدمًا بالإعراض عنها واحتقارها، ثم قفوا بعدُ على أطلالها البالية هاتفين صائحين صياح الظافر المنتصر قائلين: ها قد نجت الأمة من خطر عظيم، وها نحن أولاء قد قمنا جميعًا بالواجب علينا لوطننا.

الشيخ علي يوسف

هكذا تقوم القيامة، وهكذا ينفخ في الصور، وهكذا تطوى السماء طي السجل للكتاب. أفيما بين يوم وليلة يصبح هذا الرجل — الذي كان ملء الأفئدة والصدور، وملء الأسماع والأبصار، وملء الأرجاء والأجواء — جثة ضاوية نحيلة، مدرجة في كفنٍ، ملحدةً في مهوى من باطن الأرض سحيق؟

ما أعظم الفرق بين الحياة والموت! تغرب الشمس فلا تلبث أن تطلع من مشرقها، وتتراكم السحب فوقها فلا تلبث أن تنفرج عنها حينما تهب عليها الرياح الباردة، وتعرى الأشجار عن أوراقها ثم تعود إلى جمالها مخضرة حينما تهب عليها نسيمات الربيع، وينام الأحياء في مضاجعهم حتى إذا طلع عليهم الكوكب النهاري وعبثت أشعته بأهداب جفونهم، قاموا من مراقدهم وذهبوا في سبلهم التي خلقوا لها، ويموت الميت فلا ينتظره منتظر، ولا يؤمل أوبته أمل، فكأن ما صار إليه «العدم الذي لم يسبقه وجود».

اللهم إنا نعلم أن الموت غاية كل حيٍّ، وأنَّ مقاديرك التي تجريها بين عبادك ليست سهامًا طائشةً، ولا نياقًا عشواء، وأنَّ ورود الحياة لا يمكن أن تنبت إلا في التربة التي نبتت فيها أشواك الموت، ولكننا لا نستطيع أن نملك عيوننا من البكاء، ولا قلوبنا من الجزع إذا فارقتنا عزيزٌ علينا؛ لأنَّ ساحة الصبر التي منحتنا أضيق من أن تسع نازلة البلاء الذي ابتليتنا، فاعفر اللهم لنا جزعنا وبكاءنا على الهلكى والذاهبين.

اللهم إنك تعلم أنا نسير من حياتنا هذه في صحراء محرقة لا نجد فيها ظلًّا نستظل به، ولا أكمة ناوي إليها، وأنَّ الصديق الذي نعثر به في طريق حياتنا هو بمنزلة الدوحة الخضراء التي تنتهي إليها في تلك الصحراء بعد الأين والكلال، وطول السير والسرى، فنترامى في ظللها الوارفة هائئين مغتبطين، فإذا هبت ريحٌ عاصفة على تلك الدوحة فاقتلعتها من جذورها وطار بها في جو السماء، وأصبحنا من بعدها ضاحين بارزين

النظرات

فإننا لا نجد بدءاً من البكاء والجزع؛ لأن من الشقاء ما لا يستطيع احتمالاه ولا يطاق تجرع كأسه.

لقد كان هذا الرجل العزاء الباقي لنا عن كل ذاهب، والنجم المتلألئ الذي كنا نتنوره من حينٍ إلى حين في هذه السماء المظلمة المدلهمة المقفرة من الكواكب والنجوم، والدوحة الخضراء التي كنا نلوذ بظلالها من لفحات هذه الحياة وزفراتها. فنحن إن بكيناه فإنما نبكي الأمل الذاهب، والسعادة الراحلة، والحياة الطيبة، ومن هو الأولى بالتفجع والبكاء من سعادتنا وأمالنا!

ما كنا نرجو لهذه الأمة غير هذين الرجلين: ميت الأمس الشيخ محمد عبده، وميت اليوم الشيخ علي يوسف، فقد كانا لها طودين شامخين رابضين على أكنافها. يمسكها الأول أن تزل بها مزالق المدنية الخالبة فيذهب دينها، ويمسكها الثاني أن تطير بها أحلام السياسة الكاذبة فتذهب جامعتها. واليوم لا نرجو لها من بعدهما أحداً، فويل للأمة في دينها، وويل لها في جامعتها.

العلماء والخطباء والكتاب في هذه الأمة كثيرٌ، ولكن الرجال قليل.

إنما ينفخ الأمة ويضطلع بخطوبها ويحمل أعباءها على عاتقه، الرجل الذي يشعر من نفسه بأنه ينزل منها منزلة رئيس الأسرة من أسرته التي يعلم أنه مأخوذ بالقيام عليها والسعي لها، فيقوم لها بكل ما تريد، ويسعى لها سعي الكادح المجد، ويرحم صغيرها، ويحنو على كبيرها، ويحتمل مغارمها، ويغتفر عبث أطفالها وجهل شيوخها. ويرى لها في كل شأن من شئونها خيراً مما ترى لنفسها، أرضاها ذلك أم أغضبها، من حيث لا يمين عليها بذلك، ولا يطلب عندها جزاءً ولا أجراً. بل من حيث لا تعلم ما يلاقي بينه وبين نفسه من آلام الحياة، وما يعالج من شداؤها في سبيلها.

وكذلك كان شأن الشيخ علي يوسف في أمته، فقد مات بموته آخر من بقي لها من الرجال.

لقد كان الذين يعرفونه أقل من الذين يجهلونه؛ لأن الذين ينظرون ببصائرهم أقل من الذين ينظرون بأبصارهم، ولأن الحقيقة الكامنة في سويداء قلبه كانت أعمق مكاناً، وأدق مسلماً، من أن تتناولها النظرة الطائفة، ولأنه كان مخلصاً متحنناً، يعمل في سره أكثر مما يعمل في علانيته، ثم لا يدُلُّ بنفسه في كلتا الحالتين على نفسه.

رأيته في حادثة الأزهر — في تلك الأيام التي كان يظن فيها كثيرٌ من الناس أنه حرب على الأزهر والأزهريين — يقضي كثيراً من ليلاليه متردداً على أبواب القائمين بالأمر ضارحاً

إليهم أن ينيلوا هؤلاء القوم مطالبهم أو بعض مطالبهم، قائلاً عنهم ما كان يقوله النبي ﷺ عن فئة حنين: «اللهم إن تهلك هذه الفئة فلن تعبد بعد اليوم على ظهر الأرض أبداً.» فلا يقف في سبيله إلا حماقة أولئك الذين كان يظن المساكين أنهم أصدقاؤهم وهم أعدى أعدائهم.

ورأيته يضم إلى كنفه كثيراً من أصدقائه الذين نبا بهم الدهر بعد سقوط دولة «عبد الحميد» وتنكر لهم الناس جميعاً، خصوصاً أولئك الذين كانوا يزدلفون إليهم أيام إقبالهم، ويمرغون وجوههم على أعتاب قصورهم، وكان يلاقي في سبيل ذلك من عتب العاتيين عليه ولوم اللائمين له ما لا يستطاع احتماله، فلم يبال بشيء من ذلك. ورأيت كثيراً من أعدائه الذين كانوا في بعض أيام حياتهم حرباً عليه وشقاءً له يعودون إلى حظيرته واحداً بعد آخر يستغفرونه، فيجلس إليهم ويتحدث معهم حديث المودة والإخاء، كأنما كانوا معه على ميعاد.

وما رأيته في يوم من أيام حياته حاقداً ولا واجداً، ولا منتقماً، ولا طالباً بثأراً، ولا نائداً عن نفسه إلا في الساعة التي يعلم فيها أن قد جدَّ الجدُّ، وأن قد أصبح عرضه وشرفه على خطر. ولم أرَ سائلاً دخل إليه يشكو حاجةً من الحاجِّ صادقاً كان فيها أم كاذباً، ويسأله المعونة عليها من ماله أو جاهه إلا أعانه عليها ما وجد إلى ذلك سبيلاً، رحمة وإشفاقاً، لا رياء ونفاقاً. وكان يرى الرأي ويرى الناس جميعاً غيره فلا يثنيه عنه ثان حتى ينحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل، فإذا هو مصيب والناس جميعاً مخطئون.

ففي سبيل الله يا علي ما فقدنا بفقدك، وفي نعمة الله وجواره تلك الروح الطيبة الطاهرة التي عاشت ما عاشت في هذه الدنيا سرّاً كامناً بين أحناء ضلوعك، لا يكتننها ولا يستشف باطنها إلا قليل من الناس. فما رآها الناس جميعاً رأي العين إلا وهي طائرة في جو السماء إلى ربها. وكذلك شأن هذه الأمة البائسة المحدودة، لا ترى رجالها ولا تعرف مكانهم ولا تشعر بعظمتهم إلا وهم ذاهبون إلى قبورهم حيث تنقطع الصلة بينها وبينهم. فمثلها ومثلهم كمثل صاحب الدار الذي يجهل أن في أرضها كنزاً مخبوءاً، حتى إذا باعها ممن يستخرج ذلك الكنز منها جلس إلى ظل حائطها يبكي بكاء البائس المحزون.

لقد كنت يا علي مثل الحقيقة ينتفع الناس بوجودها ولا يفهمونها. بل كنت أفضل من الحقيقة؛ لأن الحقيقة يخدعها أعداؤها وأصدقاؤها، أما أنت فكانت تخدم أصدقاءك

النظرات

وأعداءك. أما الأولون؛ فلأنك كنت تحسن إليهم بجاهك أو بمالك أو برأيك. وأما الآخرون؛ فقد كانوا يقتاتون من تلك القطرات من الدماء التي كانوا يستقطرونها من عرضك وشرفك، فويل للفريقين معاً من بعدك! وكنت القطب الذي تدور حوله رحى الأقلام في هذا البلد، فقد كانت وظيفة الكتاب أن يشرحوا آراءك، أو يفسروا كلماتك، أو يكتبوها مقاصدك، أو يوافقوك أو يخالفوك، أو يمدحوك أو يذموك. فإن كتبوا في شأن من الشئون غير هذا فترا واستبردوا. فواضحة الأقلام، وما أضيق مذاهب الكتاب بعد رحيلك! وكنت العصمة التي تعتصم بها الأمة في مواقف بؤسها وشقاؤها، ومواطن خطوبها وكروبها، وما أحسب إلا أن الدهر مدخر لها من ذلك في مستقبل أيامها أكثر مما ادخر لها في ماضيها، فما أكثر شقاءها وبلاءها بعد اليوم!

أيها الراحل الكريم: لقد كنت أرجو أن أجد بين جنبي بقيةً من الصبر أغالب بها هذا الحزن الذي أعالجه فيك حتى يبلى على مدى الأيام كما يبلى الكفن لولا قدرٌ أبعدني عن موطنك في آخر أيام حياتك، فأحرمني جلسة أجلسها بجانب سريرك أسمع فيها آخر كلمة من كلماتك، وأرى آخر نظرة من نظراتك. وحال بيني وبين خطوة أخطوها تحت نعشك أجزيك فيها ببعض ما خطوت لي في حياتك من الخطوات الواسعات، ووقفه أقفها عند قبرك ساعة دفنك أذرف فيها على تربتك أول دموعه يذرفها الباكون عليك، فلئن بكيت موتك يوماً فسأبكي حرمانى وداعك أياماً طويلاً حتى يجمع الله بينى وبينك.

العظمة

إن رأيت شاعرًا من الشعراء، أو عالمًا من العلماء، أو نبيلًا في قومه، أو داعيًا في أمته، قد انقسم الناس في النظر إليه وفي تقدير منزلته انقسامًا عظيمًا، وانفجرت مسافة الخُلف بينهم في شأنه، فافتتن بحبه قومٌ حتى رفعوه إلى رتبة الملك، ودان ببعضه آخرون حتى هبطوا به إلى منزلة الشيطان، فاعلم أنه رجل عظيم.

العظمة أمرٌ وراء العلم والشعر، والإمارة والوزارة، والثروة والجاه؛ فالعلماء والشعراء والنبلاء كثيرون، والعظماء منهم قليلون، وإنما هي قوةٌ روحيةٌ موهوبةٌ غير مكتسبةٍ تملأ نفس صاحبها شعورًا بأنه رجل غريبٌ في نفسه ومزاج عقله ونزعات أفكاره وأساليب تفكيره غير مطبوع على غرار الرجال، ولا مقدود على مثالهم، ولا داخل في كلية من كليتهم العامة، فإذا نزلت نفسه من نفسه هذه المنزلة أصبح لا ينظر إلى شيءٍ من الأشياء بعين غير عينه، ولا يسمع بأذن غير أذنه، ولا يمشي في طريق غير الطريق التي مهدها بيده لنفسه، ولا يجعل لعقل من العقول مهما عظم شأنه وشأن صاحبه سلطانًا عليه في رأي أو فكرٍ أو مشايعةٍ لمذهب أو مناصبةٍ لطريقةٍ، بل يرى — لشدة ثقته بنفسه وعلمه بضعف ثقة الناس بنفوسهم — أنّ حقًا على الناس جميعًا أن يستقيدوا له، وينزلوا على حكمه ويتسموا مواقع أقدامه في مذاهبه ومراميه، فترى جميع أعماله وآثاره غريبةً نادرةً بين آثار الناس وأعمالهم، تبهر العيون، وتدهش الأنظار، وتملأ القلوب هيبةً وروعةً. فإن كان شاعرًا كان مبتكرًا في معانيه أو طريقتة، أو كاتبًا أخذ على النفوس مشاعرها وأهواءها، أو فقيهاً هدم من المذاهب قديمًا وبنى جديدًا، أو ملكًا شغل من صفحات التاريخ ما لم يشغله ملكٌ سواه، أو وزيرًا ساس أمته بسياسةٍ جديدة لا عهد لهم بمثلها من قبل، أو قائدًا ضرب الضربة البكر التي ترن في مسمع الجوزاء.

النظرات

تلك هي العظمة، وهذا هو الرجل، ومن كان هذا شأنه كان فتنة الناس في خلواتهم ومجتمعاتهم، ومعتك أنظارهم وأفهامهم، ومثار الخلف والشقاق بينهم في استكناه أمره، وتقدير منزلته. فيعجب به الذين فطروا على الإعجاب بكل غريبٍ والافتتان بكل جديد، حتى ينتقل بهم الإعجاب به إلى الافتتان بأقواله وأفعاله، وحركاته وسكناته، والإغراق في حبه، والمشايعة له، والسير بعجائبه وغرائبه في كل صقعٍ وناحٍ. فيقع ذلك من نفوس مناظريه وحاسديه والمتمردين على عبقريته ونبوغه موقعاً غير جميل، فلا يجدون لهم بدءاً من مقابلة الإغراق في حبه بالإغراق في بغضه، على قاعدة المشادة والمعاندة. وهناك تحتم المعركة الهائلة بين أنصاره وخصومه، فيهاجمه هؤلاء يحاولون استلاب عظمته منه، ويناضل عنه أولئك يريدون استبقائها في يده، وهو واقف بينهم يدير أنظاره فيهم هانئاً مغتبطاً، لا يحزن ولا يبتئس؛ لأنه يعلم أن جميع هذه الأصوات الصارخة الصاخبة حوله إنما هي أبواق شهرته وعظمته.

لا أريد أن أقول: إنَّ الرجل العظيم مصيب في كل ما يرى وما يفعل، وما ينتهج لنفسه وللناس من المناهج والخطط. فربما كان من هو أضعف منه قوةً وأخمل ذكراً أسدً منه رأياً وأصدق نظراً، وإنما أريد أن أقول: إنَّ أحدًا من الناس لا يستطيع أن يشغل أقلام الكتاب، وعقول المفكرين، وألسنة الناطقين، وقلوب المحبين والمبغضين، إلا الرجل العظيم.

أحب علياً قومٌ حتى كفروا بحبه، وأبغضه آخرون حتى كفروا ببغضه. وسمى بعض الناس أبا بكر وعمر شيخي المسلمين، وأنكر بعضهم صحبتهما وإخلاصهما. وعاش محيي الدين بن العربي بين فئةٍ تراه قطب الأولياء، وأخرى تراه شيخ الملحدين. واغتبط فريقٌ من المسلمين بآبن رشيدٍ فسَمَّوه فيلسوف الإسلام، ونقم عليه فريقٌ فملئوا وجهه بصاقاً في المسجد الجامع. وسمى قوم صاحب كتاب «الإحياء» حجة الإسلام، ومزق آخرون كتابه ونثروه في مهاب الرياح. وعاش المعري بين رضا الراضين عنه ونقمة الناقمين عليه، يلثم الأولون مواطئ نعاله، ويسحبه الآخرون على وجهه في الطرقات العامة. وشرب سقراط كأس السم بين أفواهٍ باسمِ شماتةٍ به، وعيون دامعةٍ حزناً عليه. وجرت الأقلام بمدح المتنبي تارةً فإذا هو سيد الشعراء، وبذمه أخرى فإذا هو أكبر المتكلمين. ورفع قومٌ شكسبير إلى مرتبة الكمال الإنساني، فقالوا: نابغة الدهر، وهبط به آخرون إلى أدنى منازل الخسة والدناءة، فقالوا: المنتحل الكذاب. وافتتن المفتنتون بنابليون الأول فَعَلُوا به إلى رتبة الأنبياء، وتنكر له خصومه وأعداؤه فسلكوه في سلك

العظمة

الحمقى والممرورين. وذاق كل من لوثر وكالفين وغليليو وفولتير ونيتشه وتولستوي كأسى الحب والبغض في حياته وبعد مماته إلى القطرة الأخيرة منهما. وما انقسم الناس في هذا البلد في هذا العصر في شأن رجل من الرجال انقسامهم في شأن جمال الدين، ومحمد عبده، وسعد زغلول، ومصطفى كامل، وعلي يوسف، وقاسم أمين.

وما كان واحد من هؤلاء في المنزلة التي يرفعه إليها المغرقون في حبه، أو ينزل به الغالون في بغضه، ولكنهم كانوا قومًا عظماء فانقسم الناس في شأنهم، وذهبوا في أمرهم هذه المذاهب البعيدة المترامية، ولا ينقسم الناس هذا الانقسام العظيم إلا في شأن الرجل العظيم.

ليس معنى الوجود في الحياة أن يتخذ المرء لنفسه فيها نفقًا يتصل أوله بباب مهده وآخره بباب لحده، ثم ينزل فيه انزلاقًا من حيث لا تراه عينٌ ولا تسمع ديبه أذن حتى يبلغ نهايته — كما تفعل الهوام والحشرات والزاحفات على بطونها من نبات الأرض — وإنما الوجود قرع الأسماع، واجتذاب الأنظار، وتحريك أوتار القلوب، واستثارة الألسنة الصامته، وتحريك الأرقام الراقدة، وتأريث نار الحب في نفوس الأخيار، وجمرة البغض في قلوب الأشرار. فعظماء الرجال أطول الناس أعمارًا وإن قصرت حياتهم، وأعظمهم حظًا في الوجود وإن قلت على ظهر الأرض أيامهم.

العظمة كالحقيقة يخدمها أعداؤها وأصدقاؤها، ويحمل أحجار هيكلها على رءوسهم هادموها وبُناتها، فحيث ترى سواد الأعداء فهناك سواد الأصدقاء، وحيث ترى الفريقين مجتمعين في صعيدٍ واحدٍ فاعلم أن العظمة ماثلة على عرشها العظيم فوق أعناقهم جميعًا.

العظمة قصر مشيد مرفوع على ساريتين منحوتتين من حب الناس وبغضائهم، فلا يزال ذلك القصر ثابتًا في مكانه لا يتزعزع ولا يتحلل ما بقيتا في مكانهما، فإذا سقطت إحداهما عجزت الأخرى عن الاستقلال به فسقطت بجانب أختها، فسقط هو بسقوطهما.

لا يعجبك أن يتفق الناس جميعًا على حبك؛ لأنهم لا يتفقون إلا على حب الرجل الضعيف المهين الذي يتجرد لهم من نفسه وعقله ورأيه ومشاعره، ثم يقعي على ذنبه تحت أقدامهم إقعاء الكلب الذليل، ي ضربونه فيصطبر لهم، ويعبثون به فيبصبص بذنبه طلبًا لرضاهم، ويهتفون به فيقترب، ويزجرونه فيزدجر.

ولا يعجبك أن يتفقوا على بغضك؛ لأنهم لا يتفقون إلا على بغض الخبثاء الأشرار الذين لا يحبون أحدًا من الناس فلا يحبهم من الناس أحدٌ.

النظرات

وليعجبك أن يختلفوا في شأنك، وينقسموا في أمرك، ويذهبوا في النظر إليك وتقدير منزلتك كل مذهب، فتلك آية العظمة، وذلك شأن الرجل العظيم.

كن القائد الذي تعترك الجيوش حوله من بين ذائِدٍ عنه وعادٍ عليه، ولا تكن الجندي الذي يسفك دمه ليسقي به دوحة العظمة التي ينعم في ظلالها القائد العظيم.

كن الناطق الذي تحمل الريح صوته إلى مشارق الأرض ومغاربها، ولا تكن الريح التي تختلف إلى آذان الناس بأصوات الناطقين من حيث لا يبهون لها، ولا يعرفون لها يدها.

كن النبتة النضرة التي تعتلج ذرات الأرض في سبيل نضرتها ونمائها، ولا تكن الذرة التي تطوُّها الأقدام، وتدوسها الحوافر والأخفاف.

كن زعيم الناس إن استطعت، فإن عجزت فكن زعيم نفسك، ولا تطلب العظمة من طريق التشيع للعظماء والتلصق بهم، أو مناصبتهم العداة والوقوف في وجههم، فإن فعلت كنت التابع الذليل وكانوا الزعماء الأعزاء

الانتقاد

سألني بعض الأصدقاء عن رأيي في الانتقاد وشروطه وحدوده، وآدابه وواجباته. ورأيي فيه ألا شروط له ولا حدود، ولا آداب ولا واجبات، وأن لكل كاتب أو قائل الحق في انتقاد ما يشاء من الكلام، مصيباً كان أم مخطئاً، محقاً أم مبطلًا، صادقاً أم كاذبًا، مخلصاً أم غير مخلص؛ لأن الانتقاد نوع من أنواع الاستحسان والاستهجان، وهما حالتان طبيعيتان للإنسان لا تفارقانه من صرخة الوضع، إلى أنه النزع. وكل ما هو طبيعي فهو حق لا ريبه فيه ولا مراة، فإن أصاب الناقد في نقده فقد أحسن إلى نفسه وإلى الناس، وإن أخطأ فسيجد من الناس من يدلّه على موضع الخطأ فيه، ويرشده إلى مكان الصواب منه، فلا يزال يتعثّر بين الصواب والخطأ، حتى يستقيم له الصواب كله.

فإن أبينا عليه أن ينتقد إلا إذا كان كفتاً في علمه ومخلصاً في عمله — كما يشترط عليه ذلك أكثر الناس — فقد أبينا عليه أن يخطأ سطرًا واحدًا في الانتقاد، وقضينا على ذهنه بالجمود والموت؛ لأننا لا نعرف لهاتين الصفتين حدودًا معينة واضحة، فكل منتقد يزعمهما لنفسه، وكل منتقدٍ عليه يجرّد منتقدَه منهما، ومتى سمح الدهر لعامل من العاملين بالإخلاص الكامل في عمله فيسمح به لجماعة المنتقدين!

على أن المنتقد الناقد لا تمنعه نغمته من أن يكون مصيباً في بعض ما يقول؛ لأنه لم يأخذ على نفسه عهدًا أن يختلق جميع المآخذ التي يأخذها، وألا يكتب إلا الباطل والمحال، وإنما هو رجل عياب بالحق وبالباطل، فهو يفتش عن السيئات الموجودة حتى يفرغ منها فيلجأ إلى السيئات المختلفة. ولقد كتب أول انتقادٍ في التاريخ بمداد الضغينة والحقد، فقد كانت توجد في عصور اليونان القديمة طائفةٌ من الشعراء يجوبون البلاد ويتغنون بالقصائد الحماسية والأناشيد الوطنية في الأسواق والمجمعات، وبين أيدي الأمراء والعظماء، فيكرمهم الناس ويجلونهم إجلالًا عظيمًا، ويجزلون لهم العطايا

النظرات

والهيات، فنفس عليهم مكانتهم هذه جماعةً من معاصريهم من الذين لا يطوفون طوافهم، ولا يحظون عند الملوك والعظماء حظوتهم، فأخذوا يعيبونهم، ويكتبون الكتب في انتقاد حركاتهم وأصواتهم، ومعاني أشعارهم وأساليبها. وكان هذا أول عهد العالم بالانتقاد، والفضل في ذلك للضغينة والحقد، فلرذيلة الحقد الفضل الأول في وجود الانتقاد وبزوغ شمس المنيرة.

كذلك لا يمنع الجاهل جهله من أن يكون رأيه في استحسان الكلام واستهجانه رأياً صائباً، لا بل ربما كان شعوره بحسن الكلام وقبحه — متى رزق حظاً من سلامة الذوق واستقامة الفهم — أصح من رأي الأديب المتكلف الذي يتعمل الانتقاد تعملاً، ويتعمق تعمقاً كثيراً في التفتيش عن حسنات الكلام وسيئاته حتى يضل عنهما، ورب ابتسامة أو تقطبية يمران بوجه السامع العامي عفواً أنفع للأديب حين يراها وأعون له على معرفة مكان الحسنه والسيئة من كلامه من مجلد ضخم يكتبه عالم مضطلع بالأدب واللغة في نقد شعره أو نثره. وإذا كان من الواجب على كل شاعر أو كاتب أن ينظم أو يكتب للأمة جميعها، أو خاصتها وعامتها، فلم لا يكون من حق كل فرد من أفرادها — متعلماً كان أو جاهلاً — أن يُدلي برأيه في استحسان ما يستحسن من كلامه، واستهجان ما يستهجن منه؟

وهل رفع العظماء من رجال الأدب إلى مواقف عظمتهم وسجل لهم أسماءهم في صحائف المجد، إلا منزلتهم التي نزلوها من نفوس السواد الأعظم من الأمة، والمكانة التي نالوها بين عامتها ودهمائها؟

وبعد، فلا يتبرم بالانتقاد ولا يضيق به ذرعاً إلا الغبّي الأبله الذي لا يبالي أن يقف الناس على سيئاته فيما بينهم وبين أنفسهم، ويزعجه كل الإزعاج أن يتحدثوا بها في مجامعهم، ولا فرق بين وقوفهم عليها وحديثهم عنها. أو الجبان المستطار الذي يخاف من الوهم، ويفرّق من رؤية الأشباح، ولو رجع إلى أناته ورويته لعلم أن النقد إن كان صواباً فقد دله على عيوب نفسه فاتقاها، أو خطأ فلا خوف على سمعته ومكانته منه؛ لأن الناس ليسوا عبيد الناقدين ولا أسراهم، يأمرونهم بالباطل فيذعنون، ويدعونهم إلى المحال فيتبعون. ولئن استطاع أحد أن يخدع أحداً في كل شأن من الشؤون فإنه لا يستطيع أن يخدعه في شعور نفسه بجمال الكلام أو قبحه. ولو أن الأصمعي، وأبا عبيدة، وأبا زيد، والجاحظ، والقالبي، وقدامة، وابن قتيبة، والأمدي، وأبا هلال، والجرجاني، بعثوا في هذا العصر من مراقدهم وتكلفوا أن يذموا قصيدة يحبها الناس من شعر شوقي

الانتقاد

مثلاً لما كرهوها، أو يمدحوا مقالة يستثقلها الناس من نثر «فلان» لما أحيوها، فالحقيقة موجودة ثابتة لا سبيل للباطل إليها، فهي تختفي حيناً أو تتنكر، أو تترأى في ثوب غير ثوبها، ولكنها لا تنمحي ولا تزول.

فلتنطق ألسنة الناقدين بما شاءت، ولتتسع لها صدور المنتقدين ما استطاعت، فقد حرمتنا الحرية في كل شأن من شؤون حياتنا، فلا أقل من أن نتمتع بحرية النظر والتفكير.

يوم العيد

أفضل ما سمعت في باب المروءة والإحسان أنّ امرأةً بائسةً وقفت ليلة عيد من الأعياد بحانوت تماثيل في باريس يطرقه الناس في تلك الليلة لابتئاع اللعب لأطفالهم الصغار، فوقع نظرها على تمثال صغير من المرمر هو آية الآيات في حسنه وجماله، فابتهجت بمرآه ابتهاجاً عظيماً؛ لا لأنها غريرةٌ بلهاء يستفزها من تلك المناظر الصبيانية ما يستفز الأطفال الصغار، بل لأنها كانت تنظر إليه بعين ولدها الصغير الذي تركته في منزلها ينتظر عودتها إليه بلعبة العيد كما وعدته. فأخذت تساوم صاحب الحانوت فيه ساعة، والرجل يغالي به مغالاةً شديدةً حتى علمت أنّ يدها لا تستطيع الوصول إلى ثمنه، وأنها لا تستطيع العودة بدونه، فسأقتها الضرورة التي لا يقدرها إلا من حمل بين جنبه قلباً كقلب الأم، وفؤاداً مستطاراً كفؤادها، إلى أنّ تمد يدها خفيةً إلى التمثال فتسرقه من حيث تظن أنّ الرجل لا يراها ولا يشعر بمكانها.

ثم رجعت أدراجها وقلبها يخفق في آنٍ واحدٍ خفقتين مختلفتين: خفقة الخوف من عاقبة فعلتها، وخفقة السرور بالهدية الجميلة التي ستقدمها بعد لحظاتٍ قليلة إلى ولدها. وكان صاحب الحانوت من اليقظة وحدة النظر بحيث لا تفوته معرفة ما يدور حول حانوته، فما برحت مكانها حتى تبعها يترسم مواقع أقدامها حتى عرف منزلها. ثم تركها وشأنها وذهب إلى مخفر الشرطة فجاء منه بجنديين للقبض عليها، وصعدوا جميعاً إلى الغرفة التي تسكنها، ففاجأها وهي جالسة بين يدي ولدها تنظر إلى فرحه وابتهاجه بتمثاله نظرات الغبطة والسرور. فهجم الجنديان على الأم فاعتقلها، وهجم الرجل على الولد فانترع التمثال من يده، فصرخ الولد صرخةً عظيمة لا على التمثال الذي انترع منه، بل على أمه المرتعدة بين يديه، وكانت أول كلمة نطق بها وهو جاثٍ بين يدي الرجل: رحماك بأمي يا مولاي، وظل يبكي بكاءً شديداً. فجمد الرجل أمام هذا المنظر

النظرات

المؤثر، وأطرق إطرًا طويلًا، وإنه كذلك إذ دقت أجراس الكنائس مؤذنة بإشراق فجر العيد، فانتفض انتفاضةً شديدةً وصعب عليه أن يترك هذه الأسرة الصغيرة المسكينة حزينةً منكوبةً في اليوم الذي يفرح فيه الناس جميعًا، فالتفت إلى الجنديين وقال لهما: أظن أنني أخطأت في اتهام هذه المرأة، فإني لا أبيع هذا النوع من التماثيل. فانصرفا لشأنهما، والتفت هو إلى الولد فاستغفره ذنبه إليه وإلى أمه، ثم مشى إلى الأم فاعتذر إليها عن خشونته وشدته. فشكرت له فضله ومروءته، وجبينها يرفض عرقًا حياءً من فعلتها، ولم يفارقهما حتى أسدى إليهما من النعم ما جعل عيدهما أسعد وأهنأ مما كانا يظنان.

لا تأتي ليلة العيد حتى يطلع في سمائها نجمان مختلفان: نجم سعود، ونجم نحوس. أما الأول فللسعداء الذين أعدوا لأنفسهم صنوف الأردية والحلل، ولأولادهم اللعب والتماثيل، ولأضيافهم ألوان المطاعم والمشارب، ثم ناموا ليلتهم نومًا هادئًا مطمئنًا تتطاير فيه الأحلام الجميلة حول أسرتهن تطاير الحمام البيضاء حول المروج الخضراء. وأما الثاني فللأشقياء الذين يبيتون ليلتهم على مثل جمر الغضى يئنون في فراشهم أنينًا يتصدع له القلب، ويذوب له الصخر؛ حزنًا على أولادهم الواقفين بين أيديهم يسألونهم بألسنتهم وبأعينهم ماذا أعدوا لهم في هذا اليوم من ثياب يفاخرون بها أنداهم، ولعب جميلة يزينون بها مناظهم، فيعللونهم بوعود يعلمون أنهم لا يستطيعون الوفاء بها. فهل لأولئك السعداء أن يمدوا إلى هؤلاء الأشقياء يد البر والمعروف، ويفيضوا عليهم في ذلك اليوم النزر القليل مما أعطاهم الله ليسجلوا لأنفسهم في باب المروءة والإحسان ما سجل لصاحب حانوت التماثيل؟

إن رجلاً يؤمن بالله ورسله، وآياته وكتبه، ويحمل بين جنبيه قلبًا يخفق بالرحمة والحنان، لا يستطيع أن يملك عينه من البكاء، ولا قلبه من الخفقان، عندما يرى في العيد — في طريقه إلى معبده، أو منصرفه من زيارته — طفلةً مسكينة بالية الثوب، كاسفة البال، دامعة العين، تحاول أن تتوارى وراء الأسوار والجدران خجلًا من أترابها وصواحبها أن تقع أنظارهن على بؤسها وفقرها، وراثثة ثوبها، وفراغ يدها من مثل ما تمتلئ به أيديهن. فلا يجد بدءًا من أن يدفع عن نفسه ذلك الألم بالحنو عليها، وعلى بؤسها ومتربتها؛ لأنه يعلم أن جميع ما اجتمع له من صنوف السعادة وألوانها لا يوازي ذرة واحدة من السعادة التي يشعر بها في أعماق قلبه عندما يمسح بيده تلك الدمعة المترققة في عينيها.

يوم العيد

حسب البؤساء من محن الدهر وأرزائه أنهم يقضون جميع أيام حياتهم في سجن مظلم من بؤسهم وشقائهم، فلا أقل من أن يتمتعوا برؤية أشعة السعادة في كل عام مرةً أو مرتين.

من الشيوخ إلى الشبان

لا نستطيع أن ننكر عليكم معشر الأبناء أنَّ شبابكم أعظم قوةً ونشاطاً، وأبعد همّةً، وأقوى عزيمةً من شيخوختنا، وأنَّ أيدينا الشاحبة المعروقة لا تستطيع أن تصل إلى ما تصل إليه أيديكم الفتية المقتدرة، وأنَّ آراءكم وأفكاركم وجميع تصوراتكم وآمالكم التي تتلون بها شبوبيتكم أكثر حدةً وحرارةً، وأبعد غوراً وعمقاً من آرائنا وتصوراتنا. ولكن الذي ننكره عليكم، ونعتب عليكم فيه أشد العتب هو زرايتكم علينا واحتقاركم لنا، ورميكم إيانا بالجمود مرةً والخرف أخرى كلما اختلفنا معكم في شأن من الشؤون. كما أننا ننعي عليكم كبرياءكم وخيلاءكم واعتدادكم بأنفسكم هذا الاعتداد العظيم الذي يخيّل إليكم معه أنَّ هذه الألوان الجمالية التي تتلون بها حياتكم الحاضرة إنما هي خاصة بكم، ووقف عليكم، لم تمر بعصر غير عصركم، ولم يَزُهْ بها شباب غير شبابكم، وأنكم أنتم أصحاب الفضل الأول في ابتكارها، وافتراع عذرتها. ولو أنكم استطعتم أن تحملوا أنفسكم على الروية والأناة، وأن تنتقلوا بأنظاركم من الحاضر إلى الماضي — وإن لم يكن ذلك من طبيعة الشباب ولا من خصائصه — لعلمتم أنَّ هذا العهد الذي يمر بكم اليوم، والذي تفاخرونا به، وتدلون علينا بأحلامه وأمانيه، وتصوراته وخيالاته، قد مر بنا مثله في زماننا. فقد كان لنا شباب مثل شبابكم نتصور فيه كما تتصورون، ونفكر كما تفكرون، ونردد في أنفسنا وأحادبثنا وعلى أسلات أقلامنا جميع هذه الآراء والأفكار التي تردودنها اليوم. حتى انطوى ذلك العهد وزالت معالمه، وهدأت على أثره تلك الثورة النفسية الهادئة التي كانت تعترك بين جوانحنا، ودخلنا غمار الحياة الحقيقية؛ حياة الجد والعمل، والنظر والتأمل، والخبرة والتجربة. فاستطعنا أن نرجع إلى نفوسنا، ونثوب إلى رشدنا، وأن نهبط بهدوء وسكون إلى أعماق قلوبنا، ونستعرض تلك الآراء والأفكار، والأحلام والأمال بإمعان وتدقيق. فاستطعنا أن نميز صالحها من فاسدها، وصادقها

النظرات

من كاذبها، ومعقولها من موهومها، وأن نقلب الأشياء على جميع وجوهها، ونرى وجوه الحسن فيها ووجوه القبح، ونوازن بين هذه وتلك. فأخذنا بما أربت حسناته على سيئاته، فلا فضل لكم في الحقيقة في هذا الذي تزعمون أن لكم الفضل فيه وحدكم من دون الناس جميعاً، إنما الفضل للشباب ومزاجه وطبيعته وحدته، ولا علاقة للعلم والجهل والذكاء والغباوة والتقدم والتأخر بشيء من ذلك.

وللشباب خصائص كثيرة وصفات متعددة، وأخص صفاته قصر النظر، وسرعة الحكم، والعجز عن إحكام الصلة بين أدوار الزمان الثلاثة: ماضيه وحاضره ومستقبله؛ فهو لا يستطيع أن يتصور تصوراً ثابتاً متيناً أن الماضي أساس الحاضر ومنبع وجوده، لا يشرق إلا من مطلعته، ولا ينبت إلا من تربته، وأن المستقبل بيد الطبيعة القاسية وقوانينها الصارمة. وليس أقرب إليه من أن يتصور أن في استطاعته أن يحو بيده في لحظة واحدة وجه الكون بأرضه وسماؤه، ثم يخلقه خلقاً جديداً على الصورة التي يريدتها ويتصورها، وأن في إمكانه أن يحيل التراب أمواهاً والأمواه تراباً. وأن يحجب بيده وجه الشمس فلا ينبعث لها شعاع إلا بإرادته، وأن يرغمها متى أراد أن تمزق حجاب الليل وتبرز في سماؤه، ولا يزال يتخبط في أمثال هذه التصورات والأحلام التي لا فائدة فيها ولا نتيجة لها، حتى تطلع في رأسه أول طليعة من طلائع الشيخوخة فتهدأ ثورته، وتفتر حدته، ثم لا يلبث أن يسقط جاثياً بين يدي القوة الإلهية والقوى الطبيعية معترفاً بعجزه وقصوره وفراغ يده من كل حول وقوة هاتفاً: إنَّ للكون إلهاً لا أستطيع محادثته، وللطبيعة سنةً لا أستطيع تبديلها.

كنا نفكر كثيراً في شأن المرأة كما تفكرون اليوم، ولا نجد حديثاً ألد ولا أطرب من الحديث عنها. وكنا لشدة إعجابنا بها، واهتمامنا العظيم بترفيها وتدليلها، والوقوع من نفسها موقعاً جميلاً، ندافع عنها ضد أنفسنا، ونطلب لها من النفوذ والسيطرة علينا أكثر مما تطلبه لنفسها. ونتمنى بجذع الأنف لو أننا رأيناها متمتعة بالحرية إلى أقصى حدودها، فتتبرج كما تشاء، وتسفر كما تريد، وتجلس إلى الرجل جنباً لجنب في المجتمعات العامة والخاصة بدون أن يعارضها معارض، أو يكدر عليها صفوها مكدراً. بل كنا نذهب في مجاملتها ومحاسنتها إلى أكثر من ذلك؛ فكنا نغترف لها سيئاتها الأدبية ونسميها سقطات — أي هفوات فردية لا أهمية لها — ونغريها بمحاسبة زوجها حساباً شديداً على خيانتها لها، ومقابلة فعلاته بمثلها؛ لأننا كنا نقرر لها مبدأ المساواة بينها وبينه، ونقول لها: ليس من العدل أن يغضب الزوج من خيانة زوجته إذا كان هو

يخونها. وكنا نظن أنَّ هذه الآراء آراء حقيقية راسخة في نفوسنا، صادرة من أعماق قلوبنا، ثم علمنا بعد ذلك أننا كنا مخدوعين فيها، وأنها آراء الشباب وخواطره، وأحلامه وتصوراتهِ، ولا يثقل على الشباب في ريعانه شيءٌ مثل ذلك الحجاب المسبل على وجه المرأة، وذلك الجدار القائم بينها وبينه.

وكنا نبتهج بكل جديدٍ كما تبتهجون، وننفر من كل قديم كما تنفرون. ونعد الأول آية الآيات مهما سخف واستبرد، والثاني نكبة النكبات مهما غلت قيمته ونفس قدره، لأننا وازنا بينهما، وفاضلنا بين مزاياهما فحكما عليهما؛ بل لأننا كنا قريبي عهدٍ بزمن الطفولة، والطفل سريع الملل، كثير السامة، لا يصبر على لعبته أكثر من يوم واحد ثم يملها فيكسرهما ويستبدل منها غيرها.

وكنا مولعين بالتقليد ولعكم به، لا نكاد نعرف لأنفسنا صورةً خاصةً تركز عليها أعمالنا في الحياة، بل كانت تمر بنا جميعاً الصور على اختلاف أنواعها وألوانها فنلتقطها بأسرع مما يلتقط «الفيلم» صورهِ كأن فضاء حياتنا معمل لتجارب الحياة واختباراتها. وكان العارف منا بلغةً أجنبية لا يلبث أن يفتتن بها وبأصحابها افتتاناً شديداً ربما حملهُ على احتقار لغته وتاريخها، فيترفع عن ذكر رجالها وعظماؤها في أحاديثه واستشهاداته، ويسخر منهم كلما جرى ذكرهم على لسان أحدٍ غيره، لا لأنه يفهمهم أو يفهم غيرهم؛ بل لأنه كان بسيطاً غريباً يحتقر كل ما في يده، ويستعظم كل ما في يد غيره.

ولم نعرف إلا بعد زوال ذلك العهد أننا كنا مخطئين في جميع هذه التصورات والأفكار، وأنها لم تكن عقائدها راسخةً في نفوسنا، بل أشباحاً وصوراً تتراءى في سماء حياتنا، فنعجب بها، ونستطير فرحاً وسروراً بجمال منظرها، وبهجة ألوانها، فأصبحنا معتدلين في آرائنا، متدئين في أحكامنا، نحب حرية المرأة، ولكننا نكره فسقها وفجورها، ونأخذ مواد المدنية والحضارة من الأمم المتقدمة، ولكننا لا نقلدها، ونحب أدب الغربيين ونعجب بأدبائهم وعلمائهم، ولكننا لا نحترق من أجل ذلك رجالنا وتاريخنا.

نحن لا نطلب منكم — معشر الأبناء — وأنتم في ثورة الشباب ونشوته أن تكونوا معتدلين في أحكامكم وتصوراتكم، أو هادئين في مطامعكم وآمالكم، فليس من الرأي أن نطلب عندكم ما لم تكن نطلبه عند أنفسنا. ولكن أمراً واحداً كنا نحرص عليه في عهدنا أشد الحرص، هو الذي نطلب إليكم أن تحرصوا عليه مثلنا، وتضنوا به ضننا.

كنا نعتقد مثلكم أننا خيرٌ من آبائنا وأجدادنا، وأوسع منهم علماً وأقوى إدراكاً، وربما اعتقدنا في الكثير منهم — كما تعتقدون فينا اليوم — أنهم جاهلون أو مخرفون،

النظرات

أو متأخرون أو جامدون، إلا أن ذلك لم يكن يمنعنا من أن نحفظ لهم منزلة الأبوة وكرامتها، فلا نلقبهم من هذه الألقاب التي تلقبونها بها، ولا نذكرهم في حضورهم أو غيبتهم بكلمة سوء تنغص عليهم ما قدر لهم أن يقضوه بيننا من أيام حياتهم. وكان شأننا معهم في برهم وإكرامهم واحترام عقائدهم ومذاهبهم — مع اتساع مسافة الخلف بيننا وبينهم — شأن خالد بن عبد الله القسري أمير العراق؛ إذ كان مسيحيًا فأسلم وحسن إسلامه، وكان أبوه لا يزال على دينه، فطلب إليه أن يبني له بيعةً في قصره يقوم فيها بأداء واجباته الدينية، فبناها له كما أراد، ولم ينع عليه شأنًا من شئونه طول أيام حياته حتى ذهب إلى ربه.

ذلك ما نضرع إليكم فيه أن تحفظوه لنا كما حفظناه من قبلكم لأبائنا وأجدادنا. واذكروا أن سيأتي عليكم ذلك اليوم الذي أتى علينا، وأنكم ستكرهون فيه أن يعاملكم أبناؤكم وأحفادكم بمثل ما تعاملوننا به اليوم، فاتقوا الله فينا وفي شيخوختنا، فنحن آباؤكم الذين ولدناكم، وأساتذتكم الذين ربيناكم، ومن أكبر العار عليكم وعلى تاريخكم أن تسبوا أساتذتكم وآباءكم وأن ترموهم في وجوههم بالجهل والجمود، وما هم بجاهلين ولا جامدين، ولكنهم شيوخ عاجزون.

الموتى

مترجمة

دقت أجراس المساء تنعى اليوم الراحل، وتندب جماله الزائل، وأخذت قطعان الماشية تعود من مراعيها إلى حظائرها، ومشى وراءها رعاتها يهشون عليها بعصيمهم، لا يريدون بها شرًا ولا أدنى؛ لأنهم يحبونها ويرحمونها، بل يخافون عليها الضلال، فهم يهدونها الطريق. ومد الظلام رواقه الأسود على جسم الطبيعة المنبسطة كأنما ظن أنها تنام كما ينام البشر، فهو يقيها برد الليل وغائلته. وساد سكون رهيب في تلك الأثناء، فلا يسمع إلا صوت البلبل يشكر للقمر ما أهدى إلى جناحيه من أشعة متلألئة، ونعيب البوم يمد صوته بالشكوى إلى الله تعالى في سمائه، وما شكاته إلا أن بني آدم يطئون أرضه، وينتهكون حرمة خرباته المقدسة، وهنالك تحت ظلال الأشجار الضخمة اليابسة رقد أسلاف سكان تلك المزرعة تحت أعماق الأرض رعدةً طويلةً، بل أكثر من طويلة؛ لأنها لا نهاية لها، فلا نسيمات الصباح الباردة، ولا تغريد الطيور الصادحة، ولا صياح الديكة، ولا رنين الأجراس، ولا هتاف الرعاة، يوقظهم من رقدتهم هذه.

أسفي عليهم، لقد أمسوا ولا نيران توقد في أكواخهم، ولا زوجات صالحات يذهبن ويجئن في تهيئة طعام عشائهم، ولا صبية صغارًا يستقبلونهم عند عودتهم ليقبلوهم ويستقبلوا قبلاتهم. أولئك الرقود الهامدون كانوا بالأمس أشداء أقوياء، تمد السنابل أعناقها خاضعة لمناجلهم، ويئن ظهر الأرض وبطنها تحت وطأة محاربتهم، وترعد جذوع الأشجار الضخمة فرقًا من ضربات فئوسهم.

النظرات

أولئك الوجوم الصامتون كانوا بالأمس فرحين مستبشرين، يرقصون ويغنون، ويجدون السعادة والبهجة في كل ما يحيط بهم، فيطربون لوقع حوافر ماشيتهم على الحصباء، كأنما يسمعون قيثاراً مطربة، ويجدون في ضجعتهم فوق الأعشاب اليابسة الراحة التي يجدها أصحاب الأسرّة فوق مهدهم الوثير، ويشعرون في تناولهم للقمّة الجافة السوداء بعد الجوع باللذة التي يشعر بها الأغنياء في تناولهم ألوان الطعام الشهي على موائدهم، ويغترفون بأكفهم الماء من الأنهر والخلجان، فيلتذّون بارتشافه كأنما يتناولون صافية الصهباء في كؤوس البلور والذهب.

أولئك الخاملون المغمورون الذين لم تنصب لهم التماثيل، ولم ترفع فوق قبورهم القباب، كانوا في حياتهم شرفاء عظماء؛ لأنهم كانوا متحابين متآخين، لا يحسد فقيرهم غنيهم، ولا يبغى قويهم على ضعيفهم، ولا يحقدون ولا يغدرون، ولا يخافون شيئاً حتى الموت، ولا يعبدون إلهاً إلا الله.

كذلك كانوا بالأمس، واليوم طواهم الرمس، فرحمة الله عليهم يوم كانوا على ظهر الأرض، وبعدهما أصبحوا في بطنها.

فليجث فوق رمال هذه القبور المبعثرة، وبين أحجارها المتهمة المتساقطة، أرباب المطامع في الحياة، وطلاب المجد والعظمة خاشعين مستكينين، خافضي رءوسهم إجلالاً وإعظاماً. وليمسكوا قليلاً عن الإدلال بعزهم وجاههم، والمكاثرة بفضتهم وذهيبهم، وليخفوا في أعماق نفوسهم ابتسامات الهزء والسخرية المترققة على شفاههم. وليعلموا أنّ طريق المجد والعظمة التي يسرون فيها — وإن كانت مخضرة جميلة، مفروشة بالأعشاب، محفوفة بالأزهار الأريجة — فإنها تؤدي في نهايتها إلى هذا المصير الذي صار إليه هؤلاء المقبورون.

أيها الناعمون في عيشهم، المدلون بعزهم وجاههم، المفتخون بقوتهم وجمالهم، لا تحتقروا هؤلاء المقبورين المساكين إن رأيتم أجداثهم مشعثة بالية، وقبابهم متهمة خاوية، ولم تروا أسماءهم منقوشة بأجمل الألوان وأزهارها على صفائح قبورهم، وأصغوا قليلاً تسمعوا آيات مدحهم والثناء عليهم ترددها الجداول والغدران، والحقول والمروج، والطيور المغردة فوق أعالي الأشجار، والسوائم الحائمة على ضفاف الأنهار. فهم أصحاب اليد التي رصعت التاج للملك، وصنعت السيف للقائد، ونسجت المسوح للراهب، وبنّت القصور للأمراء، وصاغت الحلي للأميرات، وغرست العشب للسائمة، ووضعت الحَب للطائر، وهيأت للأحياء جميعهم — ناطقهم وصامتهم — طعامهم وشرابهم، ودثارهم ومهادهم.

الموتى

أيها القوم العظاماء، لا تخلد التماثيل المنصوبة غير ذكرى ناحيتها، ولا تطمس السطور الذهبية المنقوشة فوق صفائح القبور سطور السيئات التي يخطها التاريخ في صفحاته، ولا تسمع أذان الموت الصماء نغمات الملق المترددة في أناشيد الرثاء. رب يد تحت هذه الأرض لو أتيح لها الحظ في حياتها لكانت يد العازف الذي يشنف الأذان، أو يد البطل الذي يهز العروش ويزعزع التيجان، أو يد الشاعر الذي يثير الأشجان ويبعث إلى القلوب السرور والأحزان. ورب قلب في هذه الحفائر المظلمة لو عاش في جو غير هذا الجو، وعالم غير هذا العالم، لكان قلب ملك عظيم مملوء بالأمال العظام، والأمانى الجسام، أو قلب زعيم جريء يحاسب الظالمين على ظلمهم، ويزود النوم عن أجفانهم، أو قلب نائب كبير يستهوي ببلاغته القلوب، ويسترعى الأسماع فتدوي له بالتصفيق قاعة مجلس النواب.

كم من لؤلؤة لم تعثر يد الغواص بها فظلت دفينّة بين صدفتيها! وكم من زهرة أريجّة لم تكد تنفتح حتى هبت عليها رياح الصحراء المحرقة فأذبلتها! وكم من ماسة وضاعة عجز المعدنون عن استخراجها من معدنها فانطفاً نورها في منجم الفحم المظلم! وكم من قريحة وقادة لم تصقلها العلوم والتجارب فعاشت مغفلة مهملّة حتى انطفأت شعلتها، ولو أنها صقلتها لغيرت وجه الكون، وبدلت الأرض غير الأرض! نعم كان بين هؤلاء القرويين المقبورين من كان له قلب كقلب «همبدن»، إلا أن التاريخ لا يعرفه، ومن كان له لسان كلسان «ملتن»، إلا أنه لم ينصب له تمثال، ومن كانت له همة كهمة «كرومويل»، إلا أنه لم يقدر الجيوش. ولكنهم عاشوا في هذه الفلوات المنقطعة عن العلم والحضارة فدفن الجهل مواهبهم، وأخمد الفقر نار ذكائهم وفهمهم، فمروا بهذا الدنيا ولم يشعر بهم أحد، ثم ماتوا ولم يذكرهم أحد.

هنيئاً لهم جهلهم وخمولهم، فلو أنهم كانوا عظاماء لقضوا أيام حياتهم يسفكون الدماء، ويمزقون الأشلاء، ويغتالون حقوق الضعفاء سعياً وراء أغراضهم ومطامعهم، لا بل إنهم كانوا عظاماء ولكنهم بريئون من آثام العظمة وجرائمها.

رحمة الله عليهم، لقد ذهبوا ولم يبق لهم من بعدهم مما يدل عليهم سوى حجرٍ قديمٍ ملقى في طريق مقبرتهم قد كتب عليه بخط سقيم هذا البيت البسيط من الشعر:

أيها المارُّ في هذا المكان احترم تربته ولا تطأً بقدميك رفات الموتى

النظرات

هذا كل ما طعموا فيه من شئون الحياة بعد موتهم، لم يطلبوا تمثالاً يقام لهم، ولا قبةً ترفع فوق أضرحتهم، ولا صفحةً خاصةً من صفحات التاريخ تخلد فيها أعمالهم، بل لم يطلبوا طاقة زهر تؤنس مضجعهم، ولا قطرة غيثٍ تبل ثراهم، فما كان أقتنعهم وأزهدهم!

الزهرة الذابلة

ورد إليّ من صاحب التوقيع الكتاب الآتي:

أنا تلميذ في السابعة عشرة من عمري، حصلت على شهادة الدراسة الابتدائية، ثم تقدمت لامتحان الكفاءة فلم أفجح، غير أنني عازمت على الكد للعام المقبل، وما دريت ما يخفي الغيب في سره حتى فوجئت بمرض «الحمى» العضال الذي وضععتني، وما كدت أشفى منه بعد مدة حتى أصابني «الصمم» الكامل. فضاعت بذلك آمالي، وأظلمت الأرض في وجهي، فرأيت أن أستغيث بك لعلك تسدي إليّ جميلًا بكلمة تعزية من عندك، وأنا أحق الناس بالعزاء، والسلام.

٦ يناير ١٩١٤

م. م.

لا أستطيع أن أعزيك عن مصابك يا بني، فهو فوق ما يحتمل المتحمل ويطيق الجَلْدُ الصبور، ولو أنني حاولت ذلك منك لكذبتك وغششتك، وكان شأنك شأن أولئك الهازلين العابثين الخادعين من المعزين الذين يختلفون ليلهم ونهارهم إلى منازل المنكوبين والمرزوقين ليقولوا للثاكل ولده: «لقد قدمت بين يديك شفيحًا يشفع لك يوم حسابك بين يدي ربك.» وللباكي أباه: «ما مات من خلف مثلك.» وللباكي أخاه: «إنَّ في الباقي عزاءً عن الماضي.» وللباكية زوجها: «الشباب غض والرجال كثير.» وللفاقد بصره: «حسبك مما فقدت من نور بصرك ما أبقى الله لك من نور بصيرتك.» وللمحتضر المشرف: «إنَّ في لقاء ربك عوضًا عن لقاء الدنيا.» ولمن حلت به نكبةٌ مثل نكبتك: «لقد كفاك الله بما ابتلاك سماع أقوال الكذب وكلمات السوء.» كأنما هم يحسبون أنَّ الفواجع

النظرات

والرزايا صفقات تجارية إذا قاس فيها المرء ربحه بخسرانه ووازن بين دخله وخرجه هان عليه هذا لذلك، واغتفر ما فات لما هو آتٍ، ولا يعلمون أنّ الحزن على الذاهب المفقود إنما هو زفرة من زفرات الحب، أو نفثة من نفثات الوفاء، ولا دخل للحساب والمعاوضة في شيء من ذلك، وأن أقسى الآباء قلبًا وأصلبهم فؤادًا لو ساومه مساومٌ في فلذة كبده ووضع تحت قدميه خزائن الأرض والسماء لكان رأيُه في ذلك رأي ابن الرومي في قوله:

وما سرني أن بعته بثوابه ولو أنه التخليد في جنة الخلد

وأنّ الأم تبكي وحيدها كما تبكي عاشر عشرة من أولادها، والصديق يبكي فراق صديقه وإن كثر أصدقاؤه في كل محلةٍ يحل بها، والزوجة تبكي زوجها وإن كان تحت كل نافذةٍ من نوافذ منزلها خطيّبٌ يترقبها، وأنّ البائس المسكين الذي يعيش من دنياه في مثل جحر الضب ضنكًا وبؤسًا يرضن بحياته الضن كله إذا أحس بوشك فراقها وإن علم أنه سينتقل منها إلى جنةٍ عرضها السموات والأرض. فهم في الحقيقة يسخرون من مصائب الناس وأرزائهم، ويؤلّون نفوسهم فوق ألمها باحتقار أجزائهم وازدراءها وتصغير شأنها في أعينهم، ويلقون في نفوسهم اليأس من أن يجدوا بجانب قلوبهم قلوبًا تحس بإحساسها، وتشعر بشعورها، من حيث يظنون أنهم يخفّفون عنهم أهمهم ويأخذونهم بنسيانها.

وأعوذ بالله أن أكون يا بُنَيَّ من الكاذبين في تعزيتك، أو الغاشين لك فيها، ولو أردت نفسي على ذلك لما استطعت. وكيف يستطيع أن يعزيك عن مصابك من لا يستطيع أن يعزي نفسه عن مصابه فيك، فلقد ترك كتابك هذا بين جنبَيّ لوعةٍ من الحزن لا أحسب أنها دون لوعتك التي تعتلج بين جنبيك من الحزن على نفسك، حتى صرت كأني أنا الذي ابتليت بما ابتليت به، وكأن الذي أصابك من البلاء قد أصابني من دونك. فلقد انقطع عنك بفقد سمعك أيها البائس المسكين كل ما كان بينك وبين الناس جميعًا من سببٍ وصله، فأصبحت وأنت في دار الأُنس والاجتماع، وبين ضوضاء الحياة وضجيجها، كأنك تعيش من وحشتك وكأبتك في مدينةٍ متحجرةٍ من مدن التاريخ القديم، لا تأنس فيها بأحدٍ ولا يأنس بك فيها أحد، ولا ترى بين يديك إلا نصبًا مائلًا، وتماثيل جامدة.

تحسب العينُ أنهم جد أحيا ء لهم بينهم إشارة خرس

الزهرة الذابلة

ولا يرفه عن نفسك في ساعةٍ من ساعات ضيقك وضجرك نغمة غناء، ولا رنة حذاء، ولا خريز نهر، ولا تغريد طير، ولا حفيف شجر، ولا رفيف ريح، ولا نغاء شاة، ولا نقيق ضفدع، ولا صرير جندب. سواءً لديك ليلك ونهارك، وصبحك ومساؤك، ويقظتك ومنامك، فإن فررت من وحشتك هذه إلى مجتمع من المجتمعات العامة فجلست إلى الناس ساعة تتفرج فيها مما بك، لا تسمع شيئاً مما يقولون، ولا يعينهم أن يسمعوا شيئاً مما تقول. فإن قلبت نظرك في وجوههم لتتسقط حرفاً من حروفهم، أو تتفهم حركةً من حركات شفاههم، أو إشارةً من إشارات أيديهم، أنكروا عليك نظراتك، وسخروا منك فيما بينهم وبين أنفسهم. لا بل ربما صارحوك بكلمتهم التي يضمرونها في أنفسهم، ورموا بها في وجهك من حيث لا تعلم. فإن رأوا منك أنك تقتضب الأحاديث اقتضاباً، وتذهب منها في أودية غير أوديتهم، وأنت تحدثهم فلا تحسن تقدير صوتك على مقياس أسماعهم؛ فتعلو به عليها أو تنزل به دونها، وأنت تبتسم في موضع التقطيب وتقطب في موضع الابتسام، أصبحوا ينظرون إليك بتلك العين التي ينظرون بها إلى الأطفال الصغار، والبله الأغرار. فإن ألمت بسر نظرتهم هذه إليك ألمٌ بك من الحزن والههم ما لا طاقة لك باحتماله، وأصبحت ترتاب بكل نظرة تتجه إليك، وكل ابتسامة تترأى لك، واعتادك سوء الظن بكل جالسٍ يجلس إليك من أصدقائك وعشرائك، بل من أبويك وأهلك، فلا يكاد يسلم لك صديق، أو يصفو لك حميم.

فإن فررت من الناس نجاةً بنفسك من لؤمهم وقسوتهم، فررت إلى خلوةٍ موحشة قائمة تترأى لك فيها خيالات الذكرى المؤلمة كلما وازنت بين حاضرِك وماضيك، وقارنت بين ما كنت ترجو لنفسك في أيامك الأولى، وما انتهى إليه أمرك في أيامك الأخرى، فلا تتفكك خلوة، ولا يؤنسك اجتماع.

وأخوف ما أخاف عليك إن استمرَّ بك هذا الشأن — ولا أسأل الله دوامه — وظللت تنطق ولا تسمع، وتقول ولا تفهم ما يقال، أن تصبح في يوم من أيامك لا سامعاً ولا ناطقاً، فالسمع مادة النطق التي يستمد منها قوته وحياته، ومن لا يسمع لا يحسن النطق، ومن لا ينطق لا يحسن التفكير.

وكثيرٌ عليك يا بني وأنت زهرةٌ يانعة في روض الشباب وابتسامةٌ لامعةٌ في ثغر الآمال، وفجر مشرق في سماء الحياة، أن تصعد على هذه الربوة الزاهرة المخضلة من ربا الحياة، فلا تلبث إلا قليلاً حتى يمر بك فارس الدهر فيختطفك من مكانك ثم لا يعدو بك إلا قليلاً حتى يلقيك على هذه الصخور الصماء.

النظرات

فوا رحمته لك يا بني مما بك اليوم، ومما يستقبلك به الدهر غدًا! فأسأل الله تعالى لك أن يرفع عنك محنتك، أو يمنحك عيناً ثرةً من الدمع لا ينضب معينها، تسكب منها صباح كل يوم ومساءه سَجلاً على فؤادك المتاع فتبرد غلته، وتفتأ لوعته، فالدموع هي الرحمة العامة التي يلجأ إليها المنكوبون والمحزونون يوم لا يجدون لأنفسهم في مذهب من مذاهب الأرض، ولا في سبيل من سبل السماء ناصرًا ولا معينًا، والسلام عليك — من الرائي لك، الباكي عليك — ورحمة الله.

الوجهاء

جرى بيني وبين أحد الوجهاء المصريين الحديث الآتي:

الكاتب: ما هذه الطبقة التي تكسو وجهك فتحجب منه ما يحجب صفحة السماء، من السحب السوداء؟

الوجيه: إن بين جنبي همًّا يعتلج، وكمدًا يذهب باللب ويطيّر بشظايا القلب، ونازًا من الحزن متأججة مضطربة، دخانها هذا الذي تراه.

الكاتب: أحق ما تقول وأنت الرجل السعيد بحظه المغتبط بعيشه، قصر غمدان، وخورنق النعمان، وهور وولدان، وظل ظليل، ونسيمٌ عليل، وخزائن تموج بالذهب موج التنور باللهب، ذلك إلى ما أسبغ الله عليك من صحة البدن وسلامة الحواس! وأمدك به من الجاه العريض، والكلمة النافذة والشفاعة المقبولة؟ فليت شعري ما شكاتك بعد ذلك؟

الوجيه: أشكو الفقر الباطن في الغنى الظاهر، والشقاء المقبل في السعد المدبر، وإنني لأرى في السماء غمامة دكناء توشك أن تنفجر بالصاعقة الكبرى، والكارثة العظمى.
الكاتب: ما كنت أحسب أنّ الشقاء يمر لك ببالٍ بعدما أعطاك الدهر عهدًا مكتوبًا بتلك الأحرف الذهبية؛ ألا يسدد سهمه إليك، ولا يدور دورته عليك.

الوجيه: متى كان للدهر عهدٌ يوثق به أو ذمامٌ يعتمد عليه؟ فالناس في يده كالكرة ذات الألوان في يد الصبي، يديرها فترى الأسود في مكان الأبيض، والأبيض في موضع الأسود، وكذلك بقية الألوان تعلق أسافلها وتسفل أعاليها، ودورة السعد والنحوس أسرع في عمر الدهر من لمح الطرف، ولفتة الجيد.

الكاتب: هل لك أن تحدثني من أي منفذٍ نفذ الدهر إليك، وما عهدتك شاربًا ولا عاهرًا، ولا مقامرًا ولا مستهترًا؟ وما للدهر مدخل يتسرب منه إلى خزائن الأغنياء غير هذا المدخل!

الوجيه: أين يذهب بك أيها الصديق؟ وهل يؤتى الأغنياء في هذا البلد إلا من طريق المجد الباطل والسمعة الكاذبة؟ وهل يكب العظماء على وجوههم، ويلصق بالرغام معاطسهم إلا الشغف بنظرة الأمير، ولفطة الوزير، وزورة المدير؟ وأنت تعلم أن رجلاً مثلي لا يمكن أن يكون له مطعمٌ في المجد الصحيح، فلست بصاحب علم فأفخر به، ولا صاحب قلمٍ فأمتت بما يمتُّ به أصحاب الأقلام من خدمة المجتمع الإنسانيّ وتهذيبه، فلم يبق أمامي غير هذا المجد الكاذب، وهو مجد القربى من الحكام والعمال، ولا سبيل إليه إلا ببذل ثمنٍ غالٍ تقصر عنه خزائن قارون وكنوز ركفلر، وقد أنفقت فوق الطاقة ووراء الفاقة في بناء القصور نزلًا للحكام، وغرس البساتين منازحه لهم، وإعداد الفرش والآتية لمأدبهم وولائهم، فلما نضب معين الذهب، وعيت الأرض أن تثمر فوق ما تثمر، لجأت إلى مصرفٍ من المصارف المالية فأثقلني بالديون، وأرهقني بالطلب، ففزعت منه إلى آخر ثم إلى آخر، فكنت كناقش الشوكة بالشوكة، أو غاسل الدم بالدم. ولو كشف لك من أمري ما كشف لي منه لعلمت أن جميع ما كنت أملك من أطيانٍ وعقار، ودورٍ وقصورٍ لم يبق لي منه إلا تلك الأرقام السوداء المسطورة في جرائد الصيارف، وهأنذا اليوم طريد المصارف والغرماء، وغريم القضاءين: قضاء الأرض، وقضاء السماء.

وذلك كل ما يستفيد الوجيه من وجاهته، قبحها الله وقبح كل ما تأتي به، فلا تحسد الوجيه على مظهره الكاذب وزخرفه الباطل، ولا تنفس عليه بؤسه الكامن وشقاءه الخفي، فهو أنتعس خلق الله وأكثرهم همًّا وأثقلهم مئونةً، وأخسرهم حاضرًا ومستقبلًا؛ يكون عنده من الضياع أو العمائر جملةً لا تثمر له من المال أكثر مما يسع ترفيه نفسه وتربية أولاده وصلة رحمه فيسميه الناس وجيهًا. والوجاهة كلمة صغيرة معناها في نظر الناس كبير، كأنما هي عندهم من جوامع الكلم. فالوجيه في اصطلاحهم هو الرجل الذي يمد لكل غريب نزل بلده مائدة، ويسبغ العطاء على كل عابر سبيل مر بحيه. ويشترك في جميع الجرائد والمجلات وإن كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب. ويبتاع تذاكر حفلات الجمعيات الخيرية على اختلاف ألوانها وأشكالها وإن كان لا ينتفع بواحدة منها. ويشترك في جمعية الرفق بالحيوان، وجمعيات الرفق بالإنسان، ويبتاع المؤلفات الحديثة التي يكلفه المدير أو المأمور بابتياعها وإن كانت في علم الأرتماطريقي أو علم المنطق وكان هو عمدة أو

الوجهاء

شيخ بلد، ولا تتم شروط الوجهاء عنده فبأخذ منها بالحظ الأوفر إلا إذا بذل للحكومة المعونة الكبرى في مشاريعه من بناء المستشفيات والمدارس والكتاتيب وأمثال ذلك، مما تضربه الحكومة علينا ضرب الجزية على أهل الذمة في سالف الأزمان، والتي لا فرق بينها وبين خراج الأتليان وعشور النخيل وعوائد الأملاك.

الكاتب: إنها تبرعات ومبرات لا إجبار فيها ولا إلزام، فالحكومة لا تشهر عليكم سلاحًا، ولا تعد لكم سجنًا، وكل ما في الأمر أن رجالها يخطبون فيكم ويدعونكم إلى هذه الأعمال الصالحة بالحكمة والموعظة الحسنة.

الوجيه: لا أزال أكرر القول: إن رجال الحكومة يضربون علينا ضرائب ليست في شرع ولا قانون، والوجيه في الحقيقة كالعبد في اصطلاح علماء التوحيد، مجبور باطنًا مختار ظاهرًا. أما الظاهر: فهو ما ترونه من إقامة المحافل وخطابة الخطباء، والتلطف في الطلب، وشكر المحسن على إحسانه. وأما الباطن: فهو أن الوجيه منا — كما علمت — مفلس من جميع أنواع المجد إلا مجد الزلفى عند الحكام، والحكام يعرفون ذلك منه فيدخلون عليه من بابه، ولا يفتحون له باب القربى منهم إلا على مقدار ما يفتح من أبواب خزائنه لهم، فمننا من يزوره المدير أو المفتش؛ لأنه وهاب الآلاف، أو المأمور؛ لأنه من أصحاب المثات، ومن لا يزوره أحد منهم ولا ينهض له إذا أقبل، ولا يشيعه إذا انصرف؛ لأنه لا يلبي دعوة، ولا يحضر مجمعًا، ولا يكتب رقمًا في قائمة اكتتاب، فلا يلبث أن يسلس قياده، ويصحب عناده. هذا هو الاستبداد الخفي الذي ترغب الحكومة به أنف الوجهاء من غير أن تشهر عليهم سلاحًا أو تعد لهم سجنًا، ولكنها تبلغ به في شهر واحد ما كانت تعجز عنه حكومة السجن والكرباج و«الوير كور» و«البطانطا» والعوائد الشخصية في عدة أعوام. ولقد راجعت صحيفة حسابي في هذا العام — عام الأزيمة والجدب — فوجدت أنني دفعت خراج الأتليان مرتين، ولا أعلم كم أدفعه في السنة الآتية.

الكاتب: هب أن الأمر صحيح كما تقول، فالحكومة لا تودع هذا المال خزائنها، ولا تقضي به غرضًا من أغراضها الخاصة، وإنما تنفقه فيما ينفع الأمة في تربيتها وتهذيبها، وتقدمها وارتقائها.

الوجيه: ذلك ما يجب أن تتفق عليه الحكومة من خزائنها التي تملأ من أموال الأمة لهذه الأغراض التي نذكرها، ولكنها تضمن بمالٍ هي في حاجة إليه لإصلاح السودان وبناء العمائر وتشبيد القصور، وترقية كبار الموظفين، خصوصاً الأجانب منهم، وإقرار عيون السياح الأوروبيين بالمناظر البهيجة والمشاهد الجميلة، فلا ترى لها بدءاً من حمل تلك الحملات على أعناقنا بلا رحمة ولا شفقة ولا نظر إلى ما نتكبده في هذا السبيل مما يذيب الشحم، ويعرق العظم، وليتها كانت تتدرج في الطلب وتهادن فيه فتدرك في ذلك سياسة الحكومات السالفة المعروفة باستبدادها وإرهاقها، فقد حكي عن أحد رؤسائها أنه علم أنّ أحد المديرين سلب أهالي مديريته المال دفعة واحدة، وأنهم ضاقوا به ذرعاً، فأحضره في مجلسه وأمر أن تنزع من لحيته شعرات متفرقة، فما أبه لذلك ولا احتفل، ثم أمر أن تنتزع من رأسه خصلة من الشعر مرة واحدة فصرخ وتألّم، فقال له: هكذا يجب أن يكون أخذ الأموال من الرعية، متفرقاً تحتلمه، لا مجتمعاً تتألّم له.

الكاتب: حسبك من ذلك ثواب الله وأجره على إحسانك وبذلِكَ المال في سبيله، وللآخرة خيرٌ وأبقى.

الوجيه: من أين يأتيني الثواب والأجر؟ وهل يثاب المرء إلا على قدر نيته وإخلاصه في عمله؟ وإنني أعترف لك عني وعن جميع الوجهاء أمثالي بما عرفت من أحوالهم، ومارست من طباعهم، أننا لا نريد من بذل ما نبذل إلا رضا الحاكم والتودد إليه، وموافاة رغبته لاستكمال أسباب الوجاهة مرة، وقضاء المآرب والحاجات أخرى. ووالله لقد أفسد علينا هؤلاء القوم بخطتهم هذه غرائزنا وسجايانا، وعودونا من الرياء في الإحسان والنفاق في المعاملة خطة قست معها قلوبنا، واستحجرت أفئدتنا، حتى إن أحدنا لا يكاد يحسن بالدرهم الواحد إلى جاره البائس الفقير إلا أمام قاضٍ فطن وشهود عدول. وحتى زهد فينا الفقراء، ولوت المساكين وجوهها عن أبوابنا، وجفاننا نؤو الرحم والأقرباء، وأصبحت قصورنا في نظرهم قبوراً يستدرون لها الرحمات، لا مناهل يرجون منها الصدقات، وأقفرت «مضايفنا» إلا من عريضة المطربشين. ورتانة المبرنطين، فمن أين لثواب الله أن يعرف طريقنا عافاك الله؟

الكاتب: أتغضبك كلمة الحق إن قلتها لك أيها الصديق؟

الوجيه: قل ما تشاء فقد ملأ الهم ما بين جوانحي فاستحجر قلبي حتى ما يغضبني حق ولا باطل.

الكاتب: أعجب ما رأيت من أمرك في حديثك معي أنك تعرف الحق وتتنكر له كأنك لا تعرفه، وتمد يدك إلى الصواب حتى تكاد تلمسه ثم تعجز عنه، فقد زعمت أن مجد القريبى من أولياء الأمر باطل، ولقد أصبت فيما تقول، فما شأنك به؟ وما نهوضك إليه؟ وما لك واللصوق بأمر أنت تعلم قلة جدواه، وسوء مغبته؟ ولقد كان لك طريق مختصر إلى المجد الصحيح والشرف الصميم، لو كنت أكبر منك هممةً، وأصح رأياً، وأقوى عزيمةً. فمجد الكرم ليس بأقل شأنًا من مجد السيف والقلم، ولا أرى أنك كنت تنفق في سبيله إلا بعض ما أنفقت في هذا المجد الكاذب، وما كان يصيبك في الأول من الشقاء ما أصابك في الثاني؛ فالكريم معانٍ على أمره، مبارك له في عيشه متى صح له معنى الكرم، وكانت الرحمة غريزة من غرائزه تسوقه إلى تفقد الضعفاء ومواساة الفقراء، من حيث لا يبتغي على ذلك أجرًا سوى ما وعد الله به المحسنين من حسن المثوبة والأجر، ورفع الذكرى في الآخرة والأولى. ولكنكم بخلتم بأموال الأمة عليها واحتجنتموها من دونها، وأبت لكم همتمكم الضعيفة أن يكون لكم — كما لأمثالكم في الأمم الأخرى — آثارٌ في بناء المدارس والملاجئ والمستشفيات تسمى بأسمائكم، وتسجل في صحيفة أعمالكم، فتتالون بها ما تريدون من مجد الدنيا والآخرة، فعاقبكم الله على ذلك بأن سلط عليكم من يعبت بعقولكم، ويلعب بأهوائكم، ويرغمكم على الإحسان إرغامًا، من حيث له الغنم وعليكم الغرم، فلا ذكرًا حصلتم ولا مالاً حفظتم، وكذلك نولي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون.

جرجي زيدان

لا أعلم أين تذهب نفس الإنسان بعد موته، ولا أين مكانها الذي تستقر فيه بعد فراق جسدها، ولا ما هي الصلة التي تبقى بين المرء وبين حياته الأولى بعد رحيله عنها؟ فإن كان صحيحًا ما يقولون من أن ساكن القبور يستطيع أن يجد بين صخورها ورجامها منفذًا يشرف منه على هذه الدار فيسره ما ترك وراءه فيها من ذكرٍ جميلٍ، وثناءٍ عاطفٍ، وسيرةٍ سالحةٍ، ومجدٍ باقٍ، فإن نصيب جرجي زيدان اليوم من الهناء والغبطة بما ترك في حياته الأولى من جليل الآثار، وصالح الأعمال، أوفر الأنصبة وأجزلها.

ما أنعم الله على عبده نعمَةً أسنى قيمةً، ولا أعلى جوهرًا، ولا أحسن أثرًا من نعمة اليقين بالجزاء الصالح على العمل الطيب، فهو يعتقد أنه مجزيٌّ على عمله، مكافئٌ به، مؤمنًا كان أم ملحدًا، معترفًا بنعيم الآخرة أم منكرًا له. فإن كان الأول ساقه إلى العمل الصالح شغفه بجنة الخلد وحورها وولدانها، ولؤلئها ومرجانها، وروحها وريحانها، وإن كان الثاني ساقه إليه شغفه بالذكر الجميل، والسيرة السالحة، والحياة الباقية في ألسنة الأجيال وبطون التواريخ، ولولا هاتان الجنتان — جنة المؤمنين وجنة الملحين — ما جد في هذه الحياة جاد، ولا عمل فيها عامل.

إن ميدان الحياة أضيق من أن يسع بين غايته العمل الصالح والجزاء عليه معًا، وكيف يسعهما والمرء لا يكاد يفرغ في حياته من عمله الذي يتوقع عليه الجزاء قبل أن تنطفئ ذبالة حياته، وتحترق فحمة شبابه، حيث تموت في قلبه لذة العظمة، وتتضب في فؤاده شهوة المجد، فإن فرغ منه قبل ذلك لا يترك له حساده ومنافسوه ساعة من ساعات فراغه يستطيع أن يسكن فيها إلى نفسه ليستشعر برد الراحة ولذة الجزاء، فلا بد أن يكون للجزاء حياة أخرى غير هذه الحياة، إما حياة الأجر، أو حياة الذكر.

النظرات

مات جرجي زيدان فنحن نبكيه جميعاً، أما هو فبيتسم لبكائنا ويرى في تفجعنا عليه والتباينا لفراقه منظرًا من أجمل المناظر وأبهاها؛ لأنه يعلم أنّ هذه الدموع التي نرسلها وراء نعشه أو نمطرها فوق ضريحه إنما هي ألسنة ناطقة بحبه وإعظامه، والاعتراف بفضله، والثناء على عمله، وأنها المداد الإلهي النوراني الذي تكتب به في صحيفة تاريخه البيضاء آيات مجده الخالد، وعظمته الباقية، وذلك ما كان يريد أن يكون.

مات جرجي زيدان فبكاه صديقه؛ لأنه كان يحمد وده وإخاءه، وبكاه جاره؛ لأنه كان يجد في جواره لذة الأئس وجمال العشرة، وبكاه معنفيه؛ لأنه كان ينتفع بماله، وبكاه صنعيته؛ لأنه كان ينتفع بجاهه، وبكاه قارئ كتبه؛ لأنه كان يجد فيها من غزارة المادة وجمال الأسلوب وسهولة التناول ما لا يجد في غيرها، وبكاه قارئ رواياته؛ لأنه كان يجد في خيالها وبراعة تصوراتها عونًا له على هموم الحياة وآلامها، أما أنا فبكيت له لأمر فوق ذلك كله.

تطلع الشمس صباح كل يوم من مشرقها على هذه الكائنات؛ ناطقها وصامتها، ساكنها ومتحركها، جامدها وسائلها، فتستمد جميع ذراتها منها مادة حياتها التي تقومها، أو صورتها التي تتشكل بها، وتأخذ منها الأعراس نماءها، والأزهار ألوانها، والنار حرارتها، والأجسام الحية قوتها، والأجسام الجامدة صورتها، والأجواء طهارتها ونقاءها، والآفاق جمالها وبهاءها، وكذلك كان جرجي زيدان في سماء هذه البلد.

كان بطلاً من أبطال الجد والعمل، والهمة والنشاط، يكتب أحسن المجلات، ويؤلف أفضل الكتب، وينشئ أجمل الروايات، ويناقش ويناضل، ويبحث وينقب، ويستنتج ويستنبط، ويجيب السائل ويفيد الطالب في آنٍ واحد، لا يشغله شأن من تلك الشؤون عن غيره، ولا يشكو مللاً ولا ضجراً، ولا يستشعر خوراً ولا فتوراً، فكان القدوة الحسنة بين فريق المستنيرين من المصريين، يتعلمون منه أن قليلاً من العلم يتعهده صاحبه بالتربية والتغذية ثم يقوم على نشره وإذاعته بين الناس أنفع له ولأمته من العلم الكثير والعمل القليل.

ولو شئت أن أقول لقلت: إنّ جرجي زيدان كان رئيس البعثة العلمية السورية التي وفدت إلى مصر في أواخر القرن الماضي فغيرت وجه العالم المصري تغييراً كلياً، وغرست في صحرائه القاحلة المجدبة أعراس الجد والعمل، والشجاعة والإقدام، والهمة والاستقلال، وعلمت أبناءه كيف يؤلفون ويترجمون، وينشئون الجرائد والمجلات، وكيف يتخذون من

هذا العمل الشريف صناعةً يقومون بها حياتهم المادية وحياة أمتهم الأدبية، ويتقنون بها مذلة الوقوف على أبواب الدواوين صباح مساء يتكففون رؤساءها ويسألونهم أن يتخذوهم عبيدًا لهم يخدمونهم على موائد عزهم وسعادتهم التي يجلسون عليها، فإما عطفوا عليهم فألقوا إليهم بالنزر الخسيس من فتات تلك الموائد، وإما طردوهم منها كما يطرودون الكلاب العاوية.

وكان شريف النفس، بعيد الهمة، متجملًا بصفات المؤرخ الحقيقي الذي لا يتشيع ولا يتحيز، ولا يداهن ولا يجامل، ولا يترك لعقيدته الدينية مجالاً للعبث بجوهر التاريخ وحقائقه، فكتب — وهو المسيحي الأرثوذكسي — تاريخ الإسلام في كتبه ورواياته كتابة العالم المحقق الذي لا يكتم الحسنة إذا رآها، ولا يشمت بالسيئة إذا عثر بها، فاجتمع بين يديه في مجلس علمه من أبناء الأمة الإسلامية خاصتها وعامتها، عربها وعجمها، جمعٌ لم يجلس مثله بين يدي عالم من علماء الإسلام ولا مؤرخ من مؤرخيه في هذا العصر، فأقام بهذا العمل العظيم لهذا الدين القويم حجة أمام أولئك المتعصبين من الأوروبيين الذين لا يثقون في خيرٍ من أخباره ولا في بحثٍ من أبحاثه بحديث شيعته وأبنائه. وكان في تسامحه هذا القدوة الصالحة للمؤرخ، يتعلم منه كيف يكتب التاريخ بلسان التاريخ لا بلسان الدين، والمثل الأعلى للعالم يتعلم منه كيف يستطيع أن يتجرد من عواطفه وميوله نفسه وخواطر قلبه أمام الأمانة للعلم والوفاء بحقه.

وكان مستقيمًا في عمله، أمينًا في علاقته، لا يكذب ولا يتلون، ولا يخيس بعهده، ولا ينكث وعده، ولا يكسو بضاعته لونًا غير لونها ليزخرفها على الناس ويجملها في عيونهم، فتعلم منه العاملون أن الكذب في المعاملة ليس شرطًا من شروط الربح، ولا سببًا من أسباب النجاح.

وكان واسع الصدر، فسيح رقعة الحلم، وقف له في طريق حياته — كما وقف غيره من قبله ومن بعده — فريق المقاطعين في هذا البلد الذين لا ينطقون، ولا يسكتون عن مقاطعة الناطقين، فلبسوا ثوب الانتقاد ليشتموه، وكمنوا وراء أكمة الدين ليرموه فيصموه، وقالوا: إنه شوه وجه التاريخ الإسلامي، وعبث بحقائقه، ولم يسأله من أين نقل؟ ولا كيف استند؟ بل سأله لم لم يكتبه كما كتبوا، ويستنج منه مثل ما استنتجوا؟ كأنما لم يكفهم منه أن يروه بينهم مسيحيًا متسامحًا حتى أرادوا منه أن يكون مسلمًا متعصبًا، يكتب التاريخ بلسان الدين كما يكتبون، وينهج فيه كما ينهجون، فلما لم يجوده حيث أرادوا رموه بسوء القصد في عمله، وخبث النية في مذهبه، ولم يستطيعوا أن

النظرات

بروضوا أنفسهم الجامعة على أن يقولوا: إنَّ الرجل باحثٌ مستنتجٌ، يخطئ مرةً ويصيب أخرى. أو يقولوا: إنَّ له في تاريخ الإسلام حسنات تصغر بجانها سيئاته فيه فلنغتفر هذه لتلك. وما أحسب أن أحدًا منهم كان يعتقد شيئًا مما يقول، ولكنهم كانوا يرون أنَّ الدين سلعةٌ تباع وتشتري، وأنَّ سلعته ملكٌ لهم ووقف عليهم، لا يجب أن تعرض في حانوت غير حانوتهم، وكانوا يظنون أنَّ الرجل تاجرٌ مثلهم يريد أن يفتح في سوقهم الحانوت التي يخافونها، فاستوحشوا منه وأنكروا مكانه، واستثقلوا ظله، وقالوا مرة: إنه مسيحي لا يؤمن على الإسلام ولا على تاريخه، كأنما ظنوا أنه ينقل حوادث التاريخ ووقائعه من توراة موسى أو إنجيل عيسى، وقالوا أخرى: إنه سوريٌّ دخيل وفد على هذا البلد مسترزيقًا أو متجرًا، فما هو بمخلصٍ ولا بأمين، وفاتهم — عفا الله عنهم — أنه إن كان ضيفًا، فليس من أدب الضيافة ولا من خلال المروءة والكرم أن يمن المضيف على ضيفه بيده عنده، وأن يعد عليه لقيماته التي يطعمها على مائدته، وإن كان تاجرًا فقد باعهم بهذا النزر الخسيس من متاع الدنيا وزخرفها جوهر عقله، وينبوع ذكائه، ومادة حياته، فما كانوا من الخاسرين، ولا كان من الرابحين.

ووالله ما أدري كيف تتسع صدورهم للخمار الرومي واللص الإيطالي وللفاجر الأرمني أن يفتح كل منهم في كل موطن قدم من مدنهم وقراهم حانًا يسلب فيه عقولهم، أو مقمراً يسرق فيه أموالهم، أو ماخورًا يهتك فيه أعراضهم، فلا يطاردون ولا يحاربونه، ولا يسمونه دخيلًا ولا واغلاً، ثم يضيقون ذرعًا بالعالم السوري أو العراقي أو المغربي ينزل أرضهم نزول الديمة الوطفاء بالصحراء المحرقة، فيعلمهم العلم، ويهذب نفوس أبنائهم، ويثقف عقول ناشئتهم، ويبعث في نفوس ضعاف العزائم منهم روح الهمة والنشاط، والشجاعة والإقدام.

ذلك هو شقاء الأمم، وهذا جواب السائلين عن أسباب سقوطها وانحطاطها. لم يضق الرجل ذرعًا بهذا كله، بل كان شأنه معهم أن كان يعتب عليهم، ولا يشتمهم، وينبهمهم إلى أدب المناظرة وواجباتها ولا يؤنبهم، ويدعوهم إلى اتخاذ كلمة الحق سواء بينه وبينهم، ولا يمكر بهم. حتى انقلب عنهم يحمل لواء الفضيلة والحلم، وإن كان مخطئًا، وانقلبوا عنه يحملون فوق ظهورهم رذيلة التعصب والجهل وسوء الخلق وضييق العطن وإن كانوا مصيبين.

ولقد وضع بخطته هذه في مناظرة خصومه ومجادلتهم أول حجرٍ في بناء الأخلاق الفاضلة في هذه الأمة، فتعلم منه كثيرٌ من أدياء هذا البلد وعلمائه كيف يستطيعون أن

يتناظروا ولا يتشامتوا، وأن يتعاونوا على الحقيقة المبهمة فيكشفوا الغطاء عن وجهها دون أن يريقوا في معاركهم قطرة واحدة من دم الفضيلة والشرف. فإن تم لهذه الأمة في مستقبل حياتها حظها من شرف الأخلاق وعلو الهمة ونبالة المقصد في جميع شئونها وأغراضها، فلتذكر دائماً أن جرجي زيدان كان أحد الذين أسسوا في أرضها هذه الدولة الفاضلة، دولة الآداب والأخلاق.

نحن لا تعوزنا المؤلفات ولا المترجمات، فالمؤلفون والمترجمون والحمد لله كثيرون، وإنما الذي يعوزنا روحٌ عاليةٌ تخفق في سماء هذه الأمة خفوق النجم في سمائه، وتشرق في نفوس أبنائها إشراق الشمس في دارتها؛ فتبعث العزيمة في قلب العاجز، والشجاعة في فؤاد الجبان، وتقوم من الأخلاق معوجها، وتصلح من الآداب فاسدها، وتثبت من العقول مضطربها، وتعلم كل صغيرٍ وكبيرٍ وقويٍّ وضعيفٍ أنَّ قيمة المرء في حياته أداء واجبه للإنسانية أولاً، ولأمته ثانياً، ولنفسه أخيراً. وأنَّ الحب سعادة الإنسان، والبغض شقاؤه وبلاؤه. وأنَّ الفرق بين الدين الخالص والدين المشوب أن الأول يتسع صدره لكل شيءٍ حتى لمخالفه ومحاربه، وأنَّ الثاني يضيق صدره بكل شيء حتى بنفسه، وأنَّ الله تعالى أوسع رحمة وأعلى حكمةً من أن يسد في وجوه عباده كل طريق للوصول إليه إلا طريق السيف والنار. وأنَّ هذه الأحقاد الدنيئة التي تلتهب في صدور الناس التهاباً لا تؤججها في صدورهم الأديان نفسها، بل رؤساء الأديان الذين يستخدمونها ويستثمرونها، ويتجرون بها في أسواق الغباوة والجهل. وأنَّ الذين يقصدون هذه الأحقاد ويباركونها ويعتبرونها جزءاً من ماهية الدين ومقوماً من مقوماته، إنما يقولون من حيث لا يشعرون: إنَّ الإلحاد في العالم، والفوضى الدينية فيه، وعبادة الشمس والقمر، والترب والحجر، أنفع للمجتمع الإنساني وأحسن عليه عائدةً من عبادة الإله المعبود.

ولقد كان جرجي زيدان روحاً من تلك الأرواح العالية تمنيناها برهته من الزمان حتى وجدناها، فلم ننعم بها إلا قليلاً ثم فقدناها أحوج ما كنا إليها؛ فذلك ما يبكينا عليه ويحزننا على فراقه.

الكاتب كالمصور، كلاهما ناقلٌ، وكلاهما حاكٍ، إلا أن الأول ينقل مشاعر النفس إلى النفس، والثاني ينقل مشاهد الحس إلى الحس.

وكما أنَّ ميزان الفضل في التصوير أن تكون الصورة والأصل كالشيء الواحد، كذلك ميزان الفضل في الكتابة أن يكون المكتوب في الطرس خيال المكنون في النفس.

النظرات

بهذه العين التي لا أزال أنظر بها دائماً إلى الكتابة والكتاب، وأوازن بها بين أقدارهم ومنازلهم، كنت أقرأ ذلك الأسلوب العذب البديع الذي كان يكتب به المرحوم جرجي زيدان كتبه ورواياته، فأتحيله مرأةً نقيّة صافيةً قد ارتسمت فيها صورة نفسه جليةً واضحة لا غموض فيها ولا إبهام.

وقليلاً ما كنت أجد في نفسي هذا الشعور عند النظر في كتابة كاتبٍ سواه؛ لأنّ الكاتب إن استطاع أن ينال ثناء الناس وإعجابهم ببلاغة لفظه، أو براعة معناه، أو سعة خياله، أو قوة حجته، فإنه لا يستطيع أن ينال الثقة من نفوسهم إلا إذا كان من الصادقين المخلصين.

كنت أرى عذوبة نفسه في عذوبة لفظه، وطهارة قلبه في طهارة لسانه، وصفاء ذهنه في وضوح أغراضه ومراميه، وجمال ذوقه في جمال ملاحظاته واستنتاجاته، وكان خير ما يعجبني منه ترفعه عن مجاراة المتكبرين من الكتاب في كبريائهم، ونزوله في كثير من مواقفه إلى منازل العامة ليحدثهم بما يفهمونه؛ لأنه كان من كتّاب المعاني لا من كتّاب الألفاظ، ولأنه كان يؤثّر أن يتعلم عنه الجاهلون على أن يرضى عنه المتحذلقون. وإن كان الرجل هو الأسلوب كما يقولون، فلا أعلم أنّ أحداً في هذا البلد كان أولى بوصف الكاتب من المرحوم جرجي زيدان، فوا رحمته له، ووأسفا عليه!

احترام المرأة

نعم إنَّ الرجال قوامون على النساء كما يقول الله تعالى في كتابه العزيز، ولكن المرأة عماد الرجل، وملاك أمره، وسر حياته، من صرخة الوضع، إلى أنة النزاع.

لا يستطيع الأب أن يحمل بين جانحيه لطفه الصغير عواطف الأم، فهي التي تحوطه بعنايتها ورعايتها، وتبسط عليه جناح رحمتها ورأفتها، وتسكب قلبها في قلبه حتى يستحيل إلى قلب واحد يخفق خفوقاً واحداً ويشعر بشعور واحد، وهي التي تسهر عليه ليلها، وتكلؤه نهارها، وتحتمل جميع آلام الحياة وأرزائها في سبيله، غير شاكية ولا متبرمة، بل تزداد شغفاً به، وإيثاراً له، وضناً بحياته، بمقدار ما تبذل من الجهود في سبيل تربيته، ولو شئت أن أقول لقلت: إنَّ سر الحياة الإنسانية وينبوع وجودها، وكوكبها الأعلى الذي تبعث منه جميع أشعتها، ينحصر في كلمة واحدة: «قلب الأم».

لا يستطيع الرجل أن يكون رجلاً حتى يجد إلى جانبه زوجةً تبعث في نفسه روح الشجاعة والهمة، وتغرس في قلبه كبرياء التبعة وعظمتها. وحسب المرء أن يعلم أنه سيد، وأنَّ له رعية كبيرة أو صغيرة تضع ثققتها فيه، وتستظل بظل حمايته ورعايته، وتعتمد في شئون حياتها عليه، حتى يشعر بحاجته إلى استكمال جميع صفات السيد ومزاياه في نفسه. فلا يزال يعالج ذلك من نفسه ويأخذها به أخذاً حتى يتم له ما يريد. وما نصح الرجل بالجد في عمله، والاستقامة في شئون حياته، وسلوك الجادة في سيره، ولا هداه إلى التدبير ومزاياه، والاقتصاد وفوائده، والسعي وثمراته، ولا دفع به في طريق المغامرة والمخاطرة، والدأب والمثابرة، مثل دموع الزوجة المنهلة، ويدها الضارعة المبسوطة.

ولا يستطيع الشيخ الفاني أن يجد في أخريات أيامه في قلب ولده الفتى من الحنان والعطف والحب والإيثار ما يجد في قلب ابنته الفتاة؛ فهي التي تمنحه يدها عكاراً لشيخوخته، وقلبيها مستودعاً لأسراره وهواجس نفسه، وهي التي تسهر بجانب سرير

النظرات

مرضه ليلها كله تتسمع أنفاسه، وتصغي إلى أناته، وتحرص الحرص كله على أن تفهم من حركات يديه ونظرات عينيه حاجاته وأغراضه. فإذا نزل به قضاء الله كانت هي من دون ورثته جميعاً الوارثة الوحيدة التي تعد موته نكبة عظيمة، لا يهونها عليها ولا يخفف من لوعتها في نفسها أنه قد ترك من بعده ميراثاً عظيماً. وكثيراً ما سمع السامعون في بيت الميت قبل أن يجف تراب قبره أصوات أولاده يتجادلون، ويشترون في الساعة التي يجتمع فيها بناته ونساؤه في حجراتهن نائحات باقيات.

وجملة القول أنّ الحياة مسرات وأحزان. أما مسراتها فنحن مدينون بها للمرأة؛ لأنها مصدرها وينبوعها الذي تتدفق منه. وأما أحزانها فالمرأة هي التي تتولى تحويلها إلى مسرات، أو ترويحها عن نفوس أصحابها على الأقل، فكأننا مدينون للمرأة بحياتنا كلها.

وأستطيع أن أقول — وأنا على ثقة مما أقول: إنّ الأطفال الذين استطاعوا في هذا العالم أن يعيشوا سعداء معنيّاً بهم وبتربيتهم وتخريجهم على أيدي أمهاتهم بعد موت آبائهم، أضعاف الذين نالوا هذا الحظ على أيدي آبائهم بعد فقد أمهاتهم، وللرحمة الأموية الفضل العظيم في ذلك.

فليت شعري هل شكرنا للمرأة تلك النعمة التي أسدتها إلينا وجازيناها بها خيراً؟ لا؛ لأننا إن منحناها شيئاً من عواطف قلوبنا وخوارج نفوسنا، فإننا لا نمنحها أكثر من عواطف الحب والود، ونضن عليها كل الضن بعاطفة الاحترام والإجلال، وهي إلى نهلة واحدة من نهلات الإجلال والإعظام أحوج منها إلى شؤبوبٍ متدفقٍ من الحب والغرام.

قد نحنو عليها ونرحمها، ولكنها رحمة السيد بالعبد لا رحمة الصديق بالصديق. وقد نصفها بالعفة والطهارة، ومعنى ذلك عندنا أنها عفة الخدر والخباء، لا عفة النفس والضمير. وقد نهتم بتعليمها وتخريجها ولكن لا باعتبار أنها إنسان كامل لها الحق في الوصول إلى ذروة الإنسانية التي تريدها، والتمتع بجميع صفاتها وخصائصها؛ بل لنعهد إليها بوظيفة المربية أو الخادم أو المريضة، أو لنتخذ منها ملهأةً لأنفسنا، ونديماً لسمرنا، ومؤنساً لوحشتنا؛ أي إنّنا ننظر إليها بالعين التي ننظر بها إلى حيواناتنا المنزلية المستأنسة، لا نسدي إليها من النعم ولا نخلع عليها من الحلل إلا ما ينعكس منظره على مرآة نفوسنا فيملؤها غبطةً وسروراً.

إنها لا تريد شيئاً من ذلك، إنها لا تريد أن تكون سُريّة الرجل ولا حظيته، ولا أداة لهوه ولعبه، بل صديقتها وشريكته حياته.

احترام المرأة

إنها تفهم معنى الحياة كما يفهمها الرجل، فيجب أن يكون حظها منها مثل حظها. إنها لم تخلق من أجل الرجل، بل من أجل نفسها، فيجب أن يحترمها الرجل لذاتها لا لنفسه.

يجب أن ينفس عنها قليلاً من ضائقة سجنها لتفهم أن لها كياناً مستقلاً، وحياةً ذاتية، وأنها مسئولة عن ذنوبها وآثامها أمام نفسها وضميرها، لا أمام الرجل. يجب أن تعيش في جو الحرية الفسيح، وتستروح رائحته الأريجة، ليستيقظ ضميرها الذي أخمده السجن والاعتقال من رقدته، ويتولى بنفسه محاسبتها على جميع أعمالها ومراقبة حركاتها وسكناتها، فهو أعظم سلطاناً وأقوى يدًا من جميع الوازعين والمسيطرين.

يجب أن نحترمها لتتعود احترام نفسها، ومن احترم نفسه كان أبعد الناس عن الزلات والسقطات.

لا يمكن أن تكون العبودية مصدرًا للفضيلة، ولا مدرسة لتربية النفوس على الأخلاق الفاضلة والصفات الكريمة، إلا إذا صح أن يكون الظلام مصدرًا للنور، والموت علةً للحياة، والعدم سلمًا إلى الوجود.

كما لا أريد أن تتخلع المرأة وتستهرت، وتهيم على وجهها في مجتمعات الرجال وأنديتهم، وتمزق حجاب الصيانة والعفة المسبل عليها، كذلك لا أحب أن تكون جاريةً مستعبدةً للرجل، يملك عليها كل مادةً من مواد حياتها، ويأخذ عليها كل طريق حتى طريق النظر والتفكير.

وبعد، فإما أن تكون المرأة مساويةً للرجل في عقله وإدراكه أو أقل منه. فإن كانت الأولى فليعاشرها معاشرة الصديق للصديق والنظير للنظير، وإن كانت الأخرى فليكن شأنه معها شأن المعلم مع تلميذه والوالد مع ولده؛ أي إنه يعلمها ويدربها، ويأخذ بيدها حتى يرفعها إلى مستواه الذي هو فيه، ليستطيع أن يجد منها الصديق الوفي، والعشير الكريم. والمعلم لا يستعبد تلميذه ولا يستذله، والأب لا يحتقر ابنه ولا يزدريه.

الانتقام

مترجمة

١

قضى المسيو «كابريني» برهةً طويلةً من أيام حياته سعيدًا مغتبطًا بزوجةٍ جميلة وثروةٍ سالحة وخلقٍ طيبٍ شريفٍ يحبه إلى الناس جميعًا. ثم نكبه الدهر نكبةً عظيمةً ذهبت بماله وبزوجته، فبكاهما ما شاء الله أن يفعل، ثم بلى حزنه كما تبلى جميع الأحران في قلوب الناس، ولم يجد بدءًا من أن يعيش لابنته «إيلين» ليتولى تربيتها وإسعادها. فالتحق بمصرفٍ من المصارف المالية بمرتبٍ قليل، ثم لم يزل يجد ويجتهد في خدمة العمل الذي وكل إليه حتى أصبح بعد مدة قصيرة وكيلاً لذلك المصرف. فكان يعمل فيه سحابةً نهاره ثم يعود ليلاً إلى منزله فيرى ابنته منهوكةً مضعضعةً لكثرة ما كانت تبذل من الجهد في خدمة المنزل ومناظرة شئونه. فرأى أن يتزوج ليخفف عنها بعض متاعبها وآلامها، ففعل. وكان سيئ الحظ في اختياره، فتزوج من امرأةٍ فاسدةٍ خليعة، لا همَّ لها في حياتها سوى ترفيه عيشها، وتدليل نفسها، والتقلب بين أعطاف شهواتها ولذائدها. فلم ينتفع منها بشيء، بل زادت همومه وآلامه وأثقال عيشه. ولكن ماذا يعمل وقد وضعت السلسلة في عنقه وانتهى الأمر، وأصبحت ابنته — بعد أن كانت سيدة بيتها وأميرة نفسها — أسيرةً في يد امرأةٍ قاسية داهية، تسومها أنواع الخسف وألوان العذاب. فكانت تحتل ذلك كله بصبرٍ وجلدٍ، وكانت تكتمه أباها كتمانًا شديدًا

ضناً براحته وسكونه. بل كانت تكتم عنه علائق زوجته وصلاتها بمعارفها وأصدقائها، رحمةً به وإشفاقاً عليه.

وكثيراً ما كان يعود إلى منزله في بعض لياليه حاملاً بعض دفاتر المصرف في يده ليتم فيها العمل الذي أعجله الوقت عن إتمامه هناك. فيجلس إلى مكتبه ساهراً ليله، مكباً على عمله، ذائداً النوم عن عينيه حتى يغلبه على أمره، فينام في مكانه والقلم معلق بين أصابعه في الساعة التي تكون فيها زوجته بين جمع من أصدقائها وعشرائها في بعض الملاعب أو الحانات راقصةً لاهيةً، عابثةً بجميع الفضائل الإنسانية. فإذا استيقظت ابنته أثناء الليل ورأته على هذه الحالة مشت إليه برفق وهدوء، وجلست على كرسي أمامه، واجتذبت إليها الدفتر الذي بين يديه وأتمت فيه العمل من حيث قطعه. ثم توقظه بعد ذلك لينام في فراشه، فيشكر لها يدها ومعونتها، ثم يسألها سؤال المتعصم المتمرم: ألم تعد فلانة حتى الآن؟ فتجيبه أن لا، فيذهب إلى سريره حاملاً بين جنبيه من الهم والألم ما الله به عليم.

وجملة القول أن الرجل كان شقيماً منحوساً، يسير من شئون حياته في ظلمةٍ داجية لا ينتهي بصره فيها إلى مدى، ولا يرى في سمائها نجماً يتنوره إلا ذلك النجم الضئيل الذي كان يلعب من حين إلى حين في جبين ابنته الراحمة الشفوقة، فيتنفس أمامه تنفس الراحة، ويأذن لغمه أن يبتسم في ضوءه ابتسامة الغبطة والسرور.

فإنه لجالس ذات يومٍ في غرفة مكتبه من المصرف إذ دعاه إليه مديره وأعطاه ورقةً مالية، قيمتها خمسة آلاف فرنك ليودعها الخزينة، ويسجلها في دفاتر المصرف. فتناولها منه وعاد بها إلى غرفته، ووضعها على مكتبه، وتناول الدفتر ليقيدها، فما أمسك القلم بيده حتى دخل عليه بواب المصرف وقال له: إن فتاةً من هيئتها كيت وكيت واقفةً بالباب تسأل عنك، وهي تكتم اسمها، وتأبى الدخول إلى هنا. فاضطرب اضطراباً شديداً، ومر بخاطره أنها ابنته، وأن حادثاً عظيماً حدث بالمنزل دعاها إلى الحضور إليه في المصرف وما حضرت إليه قبل اليوم. فترك كل شيءٍ في مكانه وخرج مسرعاً ليرأها، فإذا هي بعينها واقفة بجانب الجدار وقفة الحياء والخجل، وإذا بيدها كتاب تحمله إليه من زوجته، فاخطفه منها وقراه، فإذا هي تقول له فيه: إنها تريد أن يرسل إليها في هذه الساعة أربعة آلاف فرنك لتبتاع بها حليّة جميلةً رأتها في بعض المخازن، وإنها إن فاتها أن تبتاعها اليوم فربما لا تجدها غداً. فانفرجت شفثاه عن ابتسامة الغيظ والألم، وأخذ ابنته ناحية وقال لها: بلغيتها أنني لا أملك هذا المبلغ اليوم ولا غداً، ولا أستطيع ذلك

العام كله. ثم ألقى عليها نظرة العاتب لحضورها إليه في المصرف، وكان لا يحب ذلك منها، فأطرقت برأسها، ولم تقل شيئاً؛ لأنها لا تستطيع أن تقول له: إن زوجته هي التي أرغمتها على ذلك، فتزيد همومه همماً جديداً، ثم عادت أدراجها.

وكان بين عمال المصرف عامل سيئ الأخلاق، فاسد النفس والضمير، ما زال مذ دخل هذا المكان يرصد الغفلة من مديره أو وكيله، علّه يتوصل إلى اختلاس شيء من المال. فدخل غرفة الوكيل في اللحظة التي خرج فيها لمقابلة ابنته ليقدم إليه بعض الأوراق فلم يجده، ولمح الورقة المالية التي تركها على المكتب، فحدثته نفسه باختلاسها، فدار بنظره هاهنا وهاهنا ثم انقض عليها ووضعها في جيبه، وخرج متسللاً لم يشعر أحدٌ بدخوله ولا بخروجه، وما هي إلا لحظة حتى عاد المسيو «كابريني» وفي يده الكتاب الذي أرسلته إليه زوجته فمزقه وألقى به في السلة، ثم ألقى نظره على المكتب فلم يرَ الورقة المالية حيث تركها، فذعر ذعراً شديداً، وأخذ يفتش عنها في كل مكان فلم يجدها، فاشتد حزنه وهمه، وأخذ يسأل العمال والخدم عن دخل غرفته في غيابه فلم يعترف له بذلك أحد. فظل يصرخ صرخاتٍ عظيمةً تقيم المصرف وتقعده، فسمع المدير الضوضاء، فحضر ليرى ماذا حدث، فأفضى إليه الرجل بالقصة كما هي لم يكتمه منها شيئاً، إلا أنه لم يشأ أن يخبره بموضوع الرسالة التي جاءت بها ابنته ضناً بأسراره البيتية أن يعلمها أحدٌ غيره. فارتاب به الرجل، وما كان يعتد عليه بسيئة قبل اليوم، ولا يعرف له ماضياً مريباً، ولكنه كان يعلم أنه فقيرٌ مقلٌ، فظن به الظنون.

وقديماً كان الفقر ينبوع التهم، ومثار الشكوك والريب، وتركه مكانه وخرج إلى العمال والخدم يحادثهم في هذه الشأن علّه يصل إلى معرفة الحقيقة، فأخبره البواب أن الفتاة التي حضرت إليه كانت تحمل في يدها كتاباً، وأنه أخذها جانباً وأسراً إليها حديثاً لم يسمع منه شيئاً، فازداد شكه وارتياجه، وعاد إليه فوجده واقفاً في مكانه مذهولاً يقلب كفيه. فلم يقل له شيئاً، وأخذ يدور بعينيه في أنحاء الغرفة ويقلب بيده الأوراق علّه يعثر بذلك الكتاب الذي أخبره به البواب فلم يجده، فألقى نظره على السلة فرأى تلك المزق الصغيرة فجمعها فإذا هي الكتاب الذي يريده. فقرأه ثم ألقى على الرجل نظرةً شرراء وقال له: إنني أتهمك يا مسيو كابريني بأنك اختلست تلك الورقة وأرسلتها إلى زوجتك مع ابنتك لتبتاع بها الحلية الجميلة التي أعجبتك، فدهش الرجل دهشةً عظيمةً، وورد عليه ما طار بلبه وأخذ عليه أنفاسه، فصمت لحظةً، وبعد لأيٍ ما استطاع أن يقول له: نعم إنها أرسلت إليّ هذا الكتاب ولكنني لم أحفل به، ولم أرسل إليها شيئاً، بل رددتها

ردًّا فبيحًا؛ لأنني رجل فقير لا أملك هذا المقدار، ولأنني رجل شريف لا أختلسه. فلم يحفل المسيو «لورين» بدفاعه ولم يربث لضراعته واسترحامه، ولم يلبث أن رفع أمره إلى القضاء. فما أتى آخر النهار حتى كان الرجل في السجن، وكانت ابنته المسكينة في حال من الهم والحزن تستثير الأشجان، وتستذرف العبرات. أما زوجته فلم يكن يهتمها في تلك الساعة شيء سوى السعي للحصول على ثمن الحلية الجميلة من طريق غير هذا الطريق. لم ينفع الرجل دفاعه عن نفسه، ولا دفاع ابنته عنه، ولا شهادة الذين شهدوا بشرفه واستقامته من جيرانه وأصدقائه؛ لأن القضاة لا يستطيعون أن يصدقوا أن رجلاً عظيماً سرياً مثل المسيو «لورين» صاحب المصرف المشهور يكذب أو يلفق، أو يخطئ في فراسته وتقديره، وأن رجلاً فقيراً مقللاً مثل المسيو كابريني يتعفف عن اختلاس المال الذي يقع تحت يده متى وجد السبيل إلى ذلك. وكثيراً ما ساقط أمثال هذه الأقيسة الفاسدة والنظرات الطائشة الحمقاء الأبرياء والأشراف إلى أعماق السجون، وقضت عليهم وعلى أهلهم القضاء الأخير، كما قضت على هذا الرجل المسكين اليوم. فإن قاضي التحقيق لم يلبث أن سمع شهادة خصمه عليه وعرف قصة الكتاب الذي أرسلته إليه زوجته حتى اقتنع بإجرامه وأحاله إلى محكمة الجنايات.

فاستطير عقل «إيلين» وجنَّ جنونها فلم تجد بداً من أن تذهب إلى المسيو لورين لتستعطفه لأبيها، وتضرع إليه أن يساعدها على خلاصه، فذهبت إليه في منزله فاستأذنت عليه فأذن لها فدخلت، فدهش دهشة عظيمة حين رأى أمامه فتاة جميلة بارعة، بل آية من آيات الحسن والجمال، لا عيب فيها إلا أنها نحيلة صفراء متضعضة. وقد يكون الضعف والفتور عند بعض الناس حلية من حلي الجمال، فافتتن بها حين رآها، إلا أنه أخطأ في الحكم عليها كما أخطأ من قبل في الحكم على أبيها، فظن أنه يستطيع أن يستثمر لنفسه ضرورتها وحاجتها، فأخذ يحدثها في الشأن الذي جاءت من أجله، ثم ذهب معها في الحديث مذاهب أخرى لم تفهم غرضه منها إلا بعد حين؛ لأنها لم تألف سماع مثلها قبل اليوم، فأخذ وجهها يزيِّد شيئاً فشيئاً، ثم انتفضت انتفاضة الليث في غيله، وألقت عليه نظرة هائلة لو ألقتها على رجل غيره لصعق في مكانه. ولكنه كان رجلاً وقاحاً متبلداً فلم يحفل بنظرتها، وتقدم نحوها وحاول أن يغلبها على أمرها، فدافعت عن نفسها دفاعاً شديداً حتى عجزت، فأرادت الفرار من بين يديه فاعترض طريقها، فدارت بنظرها في أنحاء الغرفة تتلمس سبيلاً إلى الخلاص، فوقع نظرها على مسدس كان فوق مائدته، فاخطفته لتهدده به، فانطلقت منه رصاصة خطأ فأصابته في ذراعه،

الانتقام

فصرخ صرخةً عظيمة، وما هي إلا لحظات قلائل حتى قبض عليها، وسيقت إلى السجن بتهمة أنها دخلت على المسيو «لورين» في منزله لتسأله أن يساعدها على تربية والدها فلم يحفل بها؛ فأخرجت مسدسًا كانت تخفيه في طي رداؤها، وأطلقت عليه لتقتله، فلم تصبه إلا في ذراعه.

وقد كان في استطاعه المسيو لورين أن يعترف بالحقيقة التي يعرفها حق المعرفة فلم يفعل، ولو فعل لما ضره ذلك شيئًا، وما هي إلا أيام قلائل حتى حكمت عليها محكمة الجنايات بالسجن خمس سنين، وكانت قد حكمت على أبيها قبل ذلك بالسجن عامين.

٢

دخلت «إيلين» سجن النساء لتقضي فيه المدة المقدرة لها، ووضعت في غرفةٍ واحدةٍ مع امرأةٍ عجوزٍ ساقطة، قضت جزءًا عظيمًا من حياتها في هذا المكان المظلم القاتم، حتى ألفتها وجمدت نفسها عليه، فلم تعد تحفل بشيء في هذا العالم، ولا تفكر إلا في الساعة التي يُقَدَّم فيها إليها الطعام فتلتهمه التهامًا، وهي تضحك وتتغنى كأنما هي سعيدة هانئة، وكأنها أبعد الناس عن الهموم والأحزان. فذعرت إيلين حين رأتها نعرًا شديدًا، وتسلت إلى زاويةٍ من زوايا الغرفة فقبعت فيها، واستسلمت لهمومها وأحزانها، ولم تدع قطرة من الدموع في عينها إلا ذرفت، وأبت أن تتناول الطعام الذي قدمه إليها السجنان، فوضعه بين يديها وتركها وشأنها. فبكت ما شاء الله أن تفعل حتى هدأ بعض ما بها، فعمدت إلى كتابٍ صغير من كتب الأخلاق كانت لا تزال تحملها في جيبها ما تفارقه، فأخرجته وأخذت تتلهم بتقليب صفحاته، فكان أول ما وقع نظرها عليه من كلماته هذه الكلمة «العفو أشد أنواع الانتقام.» فانتفضت عند قراءتها انتفاضًا شديدًا، وعلق نظرها بها ما ينتقل عنها، وأخذت تراجع الحوادث التي مرت بها وتستعرضها واحدةً بعد أخرى، وتفكر في المظالم التي نالتها ونالت أباهما، وما اقترفا ذنبًا، ولا جنيا على أحدٍ حتى أوردتهما هذا المورد من الشقاء. فشعرت بدبيب الشر في نفسها للمرة الأولى في حياتها، وظلت تقول في نفسها: إنَّ الذين مرت على ألسنتهم أمثال هذه الكلمات إنما كانوا يعيشون في عصر غير هذا العصر، وبين ناس غير هؤلاء الناس، ولو أنهم عاشوا بيننا لكان لهم في العالم وأهليه رأيٌ غير هذا الرأي، ولما اجترءوا على المجازفة بتدوين هذه الأفكار في كتبهم؛ لأن العفو لا يكون انتقامًا إلا من أصحاب الضمائر الطيبة الطاهرة التي يقلقها الذنب ويخجلها العفو والتي تصدر عنها سيئاتها زلات وهفوات،

أما الضمائر القاسية المتحجرة التي لا تعبأ بشيء، ولا تخجل من شيء، فلا يزيدها العفو والصفح إلا تمرّدًا وطغيانًا.

وإنها لذهابٌ هذه المذاهب الغربية في تصوراتها وخيالاتها إذ دنت منها جاريتها العجوز تختلس الخطى اختلاسًا حتى وقفت وراءها ونظرت في الصفحة التي تنظر فيها، فوقع نظرها على تلك الكلمة التي تنعم النظر فيها، فقهقتها ضاحكة بصوت عالٍ غريب، فارتعدت «إيلين» والتفتت وراءها صارخة: ماذا تريدين يا سيدتي؟ قالت: لا تخافي يا بنيتي ولا تراعي، فما أنا بمجنونة كما ظننت وكما يظن سكان هذه الدار، ولكني رأيتك مستغرقةً في هذا الكتاب لا ترفعين نظرك عنه فجئت لأقول لك: دعي الكتب وشأنها لا تحفلي بها، ولا تعولي علي شيءٍ فيها، فإن أصحابها الذين وضعوها غرباء عن هذا العالم لا يفهمون من شؤونه شيئاً إلا كما نفهم نحن من شئون عالم الجن أو سكان المريخ، بل هم قوم معتوهون ممرورون، قضوا أيام حياتهم في معتزلاتهم الخاصة المظلمة التي لا توجد فيها نافذة واحدة تشرف على العالم وما فيه، فملوا وسئموا، وأرادوا أن يروحوا عن أنفسهم ويتلوهوا بما يسري عنهم ملهم وسأمتهم، فأخذوا يدنون هذه المبادئ التي انتزعوها من جوانب أدمغتهم لا من طبيعة المجتمع الذي يحيط بهم، ويقررون الآراء التي يستحسنونها ويعجبون بها، لا التي تتفق مع طبيعة الكون وخصائصه، فهم ينصحون المجرم أن يقلع عن إجرامه، ثم يخيل إليهم أنه قد أفلح ونزع، فيطلبون إلى من أجرم إليه أن يعفو عنه، قائلين له: «إنَّ العفو أشد أنواع الانتقام.» كأن الفضيلة عندهم هي الحالة الأساسية للنفوس، وكأن الإجماع عرض من أعراضها الطارئة عليها، لا تلبث أن تهب عليه نسمة من نسمات العظة والاعتبار حتى تذهب به. فما أسخف عقولهم، وما أقصر أنظارهم، وما أبعدهم عن فهم حقائق الحياة وطبائع النفوس! دعي الكتب يا بنيتي لا تنظري فيها، وانزعي عنك همومك وأحزانك، وكلّي الطعام الذي يقدم إليك هانئةً مغتبطةً لا تلوين على شيءٍ مما وراءك، فسيأتي قريباً أو بعيداً ذلك اليوم الذي يفتح لك فيه هذا الباب الموصل دونك، فتخرجين إلى الانتقام من الرجل الذي أساء إليك وساقك إلى هذا المكان، وتنالين منه فوق ما نال منك، كما سأفعل أنا يوم خروجي بالرجل الذي ساءني وأفسد عليّ حياتي، فليس العفو أشد أنواع الانتقام كما يقولون، بل الانتقام أعظم ملاذ الحياة.

فهدأت نفس «إيلين» قليلاً، واستطاعت أن تتناول شيئاً من الطعام الذي قدم إليها، إلا أنها كانت إذا جاء الليل رأت أباهما في منامها يقاسي أنواع العذاب وصنوف الآلام في

الانتقام

سجنه، فتصبح باكية نادبةً، لا يهون عليها ألامها بعض التهوين إلا ثثرة تلك العجوز وهذيانها. حتى نامت ذات ليلة فرأته ميتاً على سرير من أسرة مستشفى السجن، تحيط بجنته شمعتان مضيئتان، فاستيقظت فزعاً مذعوراً تبكي وتنتحب، وما هي إلا هنيهة حتى دخل عليها السجان يدعوها لمقابلة مدير السجن، فذهبت إليه، فأبلغها أن أباهما توفي الليلة في المستشفى، فصعقت صعقةً كادت تذهب بنفسها، ثم استفاقت فإذا هي في غرفة سجنها. فإذا هي أشد عباد الله بؤساً، وأعظمهم شقاء.

٣

قضت «إيلين» سنواتها الخمس في سجنها ثم خرجت فمشت معها رفيقتها العجوز تشيعها إلى الباب وتقول لها: لا تنسي يا بنيتي أن تنتقمي من عدوك الذي أساء إليك، وتنكلي به تنكياً عظيماً، وسأتبعك على الأثر عما قريب لأنتقم من عدوي مثلك، وهل لثني ومثلك في هذه الحياة الشقية البائسة عزاءٌ غير عزاء الانتقام؟

فودعتها وانصرفت، لا تعلم أين تذهب، ولا أي طريق تسلك، بل لا تعلم أين تجد قوت يومها، أو المضجع الذي تأوي إليه سواد ليلتها، فقد انقطعت صلتها بالعالم كله بعد موت أبويها، وطبع على جبينها «المجرمة» التي خرجت به من سجنها.

ولم تزل سائرةً عدة ساعات حتى شعرت بالتعب والنصب، وأحست بالجوع يعبث بأحشائها، فحدتتها نفسها بالانتحار فراراً من الألم، وزهداً في الحياة وظلت تترجح ساعة بين الأفسس بهذا خاطر والنفور منه حتى غلبها على أمرها، فأخذت طريقها إلى النهر، وكانت الليلة داجيةً مكفهرة، تلمع بروقها، وتهطل غيومها، وتدمم رعوها، وتعصف رياحها، فاستمرت أدرجها حتى إذا لم يبقَ بينها وبين النهر إلا بضع خطوات سمعت قعقة مركبة مقبلة نحوها من بعدٍ يمزق نور مصباحها المشتعلين أحشاء الظلمات، فتريثت هنيهة في مكانها حتى مرت المركبة بها فإذا المسيو «لورين» جالساً بين بضع فتيات خليعاتٍ يعابهن ويداعبن، ويقهقه قهقهةً عاليةً ترن في أجواز الفضاء، فاختبات وراء بعض الأشجار حتى مر، ثم برزت من مخبئها تحدث نفسها وتقول: ها هو ذا المجرم سعيدٌ في حياته، مغتبط بحظه، يتقلب في أعطاف العيش الناعم لا ينغص عليه عيشه منغصٌ، ولا يكدر حياته مكدر، وهأنذا البريئة الطاهرة التي لم ألوث يدي في حياتي بجريمة، ولم أقترف بيني وبين ضميري إثماً، أهيم في هذا الوادي الفسيح على وجهي، لا أعرف لي ملجأ، ولا مأوى، ولا أعرف سبيلاً للعيش ولا مذهباً، ولو عرفت لما

النظرات

استطعت أن أنتفع بمعرفتي؛ لأنني عند الناس مجرمة قاتلة، ومن ذا الذي يأمن على نفسه أن يتصل بالقتلة المجرمين أو يعطف على بأسائهم وضرائهم؟ لا، لا بد أن أعيش، ولا أبدأ أن أنتقم، وما دامت الشرائع الإلهية والقوانين الوضعية قد عجزت عن أن تنتصف للناس من الناس فلينتصف الناس بأنفسهم لأنفسهم.

وانحدرت من طريق النهر إلى طريق المدينة، وقد ودعت في تلك اللحظة جميع خواطر الخير التي ملأت فضاء نفسها طول حياتها، وخلعت ذلك الثوب الجميل المتلألئ الذي لبسته مذ برزت إلى الوجود حتى اليوم — ثوب الشرف والكرامة والطهارة والأدب — واستحالت نفسها الطاهرة الكريمة إلى نفسٍ أخرى غيرها لا صلة لها بها، فلم ينحدر برقع الظلام عن وجه الصباح حتى رآها الناس مع أحد العمال المريبين هادئةً ساكنةً، باسمه متطلقة، لم يبق في وجهها من دم الحياء إلا قطرات، قد أخذ لونها يستحيل شيئاً فشيئاً إلى لون البياض لتلحق بأخواتها.

٤

وكذلك هوت تلك الفتاة المسكينة البائسة في تلك الهوة التي حفرها المجتمع الإنساني لأمثالها من الفتيات البائسات، فظلت تنتقل من يدٍ إلى يد، ومن مضجعٍ إلى مضجع، وكأنَّ الحظ الذي فارقها وتجهم لها في حياة الطهارة والعفة أقبل عليها بوجهه الباسم المتهلل في حياة السقوط والفساد، فما هي إلا أيام قلائل حتى طلعت في سماء باريس نجماً ساطعاً متلألئاً تنير كل أفق تشرق فيه، وتعطر كل أرض تخطر بأرجائها، وتعبث بألباب الرجال عبث النسائم بأوراق الأشجار.

فإنها لجالسة ذات ليلة في مقصورة من مقاصير بعض الملاعب التمثيلية في جمع من أصدقائها المفتننين بها، إذ وقع نظرها على خصمها المسيو «لورين» جالساً في المقصورة المقابلة لها مع إحدى خليلاته، فانتفضت حين رأته، وثارت في نفسها ثائرة الغيظ والحنق، وظلت تردد النظر في وجهه طويلاً، فلمحها وهي تنظر إليه، فأعجبه منظرها البارع الجميل، إلا أنه لم يعرفها، فقد تغير كل شيءٍ فيها حتى ملامحها وشمائلها. فما انتهى الفصل الأول من الرواية حتى نهض من مكانه مسرعاً وذهب يروود حول مقصورتها حتى التقى بأحد أصدقائه في دهليز المقاصير فسأله عنها، فأخبره أنها السيدة «لوسي» المارسييلية الحسناء، أجمل فتاة وفدت إلى باريس في هذا العام. فتوسل إليه أن يقدمه إليها ففعل، فأحسنت ملتقاه، وقد أضمرت له في نفسها شر ما يضر

عدوِّ لعدوه، وأقبلت عليه تحدّثه وتتلطف به، وتمد له الحباله التي اعتادت أن تمدّها كل يوم لأمثاله، فما لبثت أن وقعت من نفسه، وملكت عليه جميع مشاعره، ثم رفع الستار فاستأذنها إلى مقصورته، وقد حلت من قلبه محلًّا لم يحله أحدٌ قبلها.

وفي صباح اليوم الثاني أرسل إليها مع بعض رسله باقةً جميلة من الزهر قد دس بين أوراقها عقدًا بديعًا من اللؤلؤ الثمين، فابتهجت به حين رأته، لا لأنها في حاجة إلى العقود والدمالج؛ بل لأنها علمت أنها قد وضعت يدها على الزمام الذي تقوده به إلى الهلاك. ثم زارها على الأثر وخر جاثيًا تحت قدميها مقدمًا لها قلبه وحياته، وكل ما تملك يده؛ أي إنه جثا تحت قدمي تلك الفتاة البائسة المسكينة التي جثت تحت قدميه منذ سنواتٍ تسأله أن يساعدها على فكاك أبيها من سجنه وتضرع إليه أن يغفر له ذنبه إليه، إن كان يعتقد أنه مذنب، فلم يفعل، ولو أنه فعل لابتاع بثمنٍ قليلٍ لا يوازي ربع ثمن العقد الذي قدمه الآن إليها قلبًا طاهرًا نقيًّا، لم تلوّثه الذنوب والآثام، ولم تعبت به الأهواء والشهوات، وعاش عيشًا طاهرًا شريفًا مع خير الزوجات وأفضلهن خلقًا وخلقًا. ولكن هكذا قدر لهؤلاء المساكين الضعفاء أن يضمنوا بالنزر اليسير من أموالهم على ابتياع القلوب الشريفة الطاهرة، حتى إذا لوثتها الذنوب والآثام وأصبحت نهبًا مقسمًا في أيدي الشهوات، بذلوا في سبيل الوصول إليها جميع ما تملك أيديهم، حتى شرفهم وحياتهم، فقد ابتاع المسيو «لورين» لخليته الجديدة قصرًا جميلًا أثنته أثنائًا حسنًا، ونزل على حكمها في كل ما تريد وتشتهي، حتى أنفق عليها في عام واحد كل ما تملك يمينه، ثم اضطر أن يعبت بودائع الناس المودعة في مصرفه، فمشى في ذلك المزلق المنحدر مدًى بعيدًا أشرف منه على الخطر العظيم.

ثم حدث بعد ذلك أن فتحت سوقٌ للإحسان في باريس، وكانت «لوسي» إحدى النساء اللواتي وقع عليهن الاختيار لبيع الأزهار فيها، وكان تجار تلك السوق أجمل نساء باريس على الإطلاق، فجلست في حانوتها المعد لها، وقد أمسكت بيدها زهرةً تعرضها للبيع، وتعد من يبتاعها منها أن يتناولها بفمه من فمها، فازدحم حولها كثيرٌ من الأغنياء يتزايدون في ثمن تلك الزهرة، حتى برز رجل من بينهم اسمه الكونت «مارسيال» فعرض فيها خمسمائة فرنك، فقالت: لا أبيعها إلا بألف، فأمسك الكونت، وأمسك الناس جميعًا، وإنهم كذلك إذ بالمسيو «لورين» يتقدم بهدوء وسكون وفي يده ورقة بألف فرنك، فوضعها بين يدي لوسي، وقال لها: لا يبتاع منك زهرتك يا سيدتي أحدٌ سواي، فوضعتها بين ثناياها، فتناولها منها بفمه بأسلوب رقيق حسده عليه مزاحموه جميعًا،

النظرات

وخاصة الكونت مارسيل، فقد انصرف من موقفه هذا وهو يقول: ما رأيت في حياتي صاحب مصرفٍ يذهب في حياته هذا المذهب من البذخ والإسراف، ويبعثر المال بلا حيطةٍ ولا حذرٍ كهذا الرجل، وما أحسب أن ثروته الخاصة تتسع لكل هذا، فلا بد أن يكون لصاً دينياً يسرق ودائع الناس ويبيدها، فويل للمساهمين في مصرفه، ورحمة الله على أموالهم جميعاً. وكان يتكلم بصوت عالٍ يسمعه الناس جميعهم، وليس بين الأحاديث حديثٌ أسيرٌ ولا أذيعٌ من حديثٍ السوء! فمشت كلماته في المجتمعات العامة والخاصة، فاضطرب لها المساهمون وأصحاب الودائع اضطراباً عظيماً، ووصل الخبر إلى أعضاء مجلس إدارة المصرف، فهاهم الأمر، وأشفقوا على سمعة مصرفهم أن تتال منها هذه الأراجيف فيسقط سقطه لا قيام من بعدها، فقرروا الاجتماع في يوم معين لمراجعة حسابه، وتفقد أمواله.

فلما علم ذلك المسيو «لورين» أخذ يزور في الصكوك، ويعبث بدفاتر الحساب. طلباً للخلاص من التبعة، فلم يجده ذلك شيئاً، فقد فهم مجلس الإدارة كل شيء، فلم يرَ بداً من أن يرفع الأمر إلى القضاء، ففعل. والمسيو «لورين» مستغرق في شهواته ولذاته، جاث ليله ونهاره تحت قدمي خليلته، لا يشعر بشيء مما يجري حوله. لولا أن أحد أصدقائه من المحامين وقف على جلية الخبر فزاره في منزله ليخبره به فلم يجده، فذهب إلى منزل «لوسي» فوجده، فأخبره أن الأمر قد صدر بالقبض عليه، وأنه إن لم يبادر بالسفر في الحال فقد هلك إلى الأبد. فأشار إلى «لوسي» أن تعد له حقيبة ملابسه، وأن تهين نفسها للسفر معه، وهو أعظم الناس ثقة بها، وبحبها وإخلاصها، فتظاهرت بالإذعان لأمره والثناء له، ولكنها لم تلبث أن خرجت من الغرفة حتى هرعت إلى غرفة «التليفون» وبلغت رئيس الشرطة خبر عزمه على الهرب، وأشارت عليه بإرسال من يقبض عليه في الحال.

ثم أمرت الخدم بإغلاق الأبواب والوقوف في وجهه إن أراد الفرار، ثم عادت إليه، فسألها: هل أعددت كل شيء؟ فنظرت إليه نظرة غريبة لم يفهم معناها، ثم انفجرت ضاحكةً بصوتٍ عالٍ، فدهش وسألها ما بالها، قالت: لا شيء سوى أنك ستبقى سجيناً هنا حتى يأتي رئيس الشرطة للقبض عليك، ثم ألقت عليه نظرةً مخيفةً هائلةً، فعجب لأمرها، ولم يعلم أمازحة هي، أم نزل بها عارض من عوارض الجنون، ووثب من مكانه مسرعاً ودنا منها وقال لها: ماذا عرض لك يا لوسي؟ فقد طلبت إليك أن تهيني نفسك للسفر معي، فهل فعلت؟ لقد دنت الساعة، ولسنا الآن في موقف مزاح وأخاف

الانتقام

أن تفاجئنا الشرطة الساعة فتفتوت الفرصة، فضحكت ضحكةً أخرى، وقالت: قد بلغت رئيس الشرطة أنك عازم على السفر، وأشرت عليه أن يبادر بإرسال الجنود ليقبضوا عليك، وأمرت الخدم بإغلاق الأبواب حتى لا تتمكن من الهرب قبل حضورهم. فجنّ جنونه، وقد بدأ الريب يدب في نفسه، وإن لم يفهم لما يرى سبباً، فركض إلى الباب ليتحقق الأمر بنفسه، فوجده مغلقاً، فأمرها أن تفتحه، فأبت، فهجم عليها هجمةً شديدةً وهو يصيح: أين المفتاح أيتها العاهرة؟ فقالت: أتريد أن تقتلني كما قتلت أبي بالأمس؟ فلم يفهم معنى كلمتها، ووقف في مكانه زاهلاً يقول لها: لم أفهم من أمرك شيئاً، ماذا تريد؟ ومن هو أبوك؟ قالت: هو المسيو «كابريني» — وكيل مصرفك بالأمس — الذي اتهمته ظلمًا وعدوانًا بالسرقة، وأنت تعلم أنه رجلٌ شريفٌ مستقيم لو علم أنّ شرب الماء يفسد مروءته ما شربه، فكانت نهاية أمره أن مات في سجنه ميتة الأشقياء البؤساء، لا يعود من أهله عائداً، ولا يحتضنه إلى صدره في ساعة نزع محتضن، ولا يوجد بجانبه مضعه من يسمع منه وصيته الأخيرة.

فاصفر وجه «لورين» وظل جسمه يرتعد ارتعاداً شديداً وأخذ يحرق النظر في وجهها، ويتراجع شيئاً فشيئاً، ويقول بصوت مضطرب متقطع: إذن أنت لست ... فقاطعته وقالت: نعم لست حبيبك «لوسي» كما تعتقد، بل عدوتك «إيلين» التي تريد أن تنتقم منك لفجيعتها في أبيها وفي نفسها، أنا إيلين التي جثت تحت قدميك منذ سبعة أعوام تسألك أن ترحم أباهاً وترحمها، فأبيت إلا أن تساوّمها في عرضها، فلما ضنت به عليك أردت النكاية بها فاتهمتها بتهمة القتل كذباً وافتراءً كما صنعت بأبيها من قبلها، فصدق القضاة الأغبياء دعواك، فحكّموا عليها بالسجن خمس سنوات، كابدت فيها من صنوف العذاب وأنواع الآلام ما لا يستطيع أن يحتمله بشرٌ. ثم خرجت من سجنها مصفرة اليد من كل شيء، من بيتها وأهلها وكرامتها وشرفها، وكل ما تملك يدها من القوت الذي تقيم به صلبها بياض يومها وسواد ليلتها. وكان لا بدّ لها من المغامرة بنفسها في إحدى الهوتين: إما هوة الموت لترتاح من هموم الحياة والآمها، أو هوة الفساد لتنتقم لنفسها من عدوها الذي نكبها، وأفسد عليها حياتها، فأثرت الانتقام على الموت؛ لأن نفسها الطاهرة الطيبة قد استحالت إلى نفسٍ شريرة حاقدة لا تريد أن تسمح لعدوها أن يبني سعادته على أنقاض شقاتها، وأن يفلت من العقوبة التي هي النتيجة الطبيعية للذنوب والآثام، وما هي ذي قد انتقمت لنفسها، وروحت عنها همومها وآلمها.

فنكس رأسه ملياً ثم رفعه وقال: إذن ما أحببتني قط يا لوسي؟ قالت: نعم، بل ما اتصلت بك إلا لأسوقك إلى هذا المصير الذي صرت إليه اليوم، أنت الآن متألم جداً، بل لا

النظرات

يوجد في العالم كله ألم مثل الألم الذي يعتلج في أعماق نفسك: لأنك فقدت في يوم واحد شرفك وكرامتك، ومالك وحريتك، وموضوع حبك، ووجهة أمالك في حياتك، وهذا ما كنت أريده وأرجوه، وهذه هي الساعة الوحيدة التي شعرت فيها بلذة العيش وهنائه من بين ساعات حياتي.

فنظر إليها نظرةً منكسرةً دامعةً وقال لها: ما كنت لأحفل بخسران شيء في الحياة لو أنني ربحتك يا لوسي، أما وقد أصبحت يدي صفرًا منك فلا خير في العيش من بعدك، ثم تهافتت على مقعد بجانبه وانفجر باكياً ما تهدأ دموعه، ولا يفتر نشيجه، حتى حضر الجند فاعتقلوه، وساقوه إلى سجنه وهو صامت واجمٌ لا يرفع طرفه، ولا يلتفت وراءه، وإيلين تشييعه بنظرات السرور والاعتباط حتى انقطع أثره.

٥

نعم، إنَّ الانتقام لذيذ جداً كما يقولون، ولكنه اللذة التي يعقبها الندم والأسف، وتأتي على أثرها الحسرات والألام، وما استطاع منتقم قط أن يزن عمله بميزان العدل والحكمة فتهدأ نفسه ويستريح ضميره بعد فراغه من انتقامه كما تبدأ نفس القاضي العادل بعد صدور حكمه بالعقوبة التي يراها، والفرق بينهما أنَّ القاضي يصدر في رأيه عن نفسٍ هادئة مطمئنة، قادرة على الروية والأناة والمقارنة والمقابلة، والوزن والتقدير، والمنتقم يصدر في عمله عن روح هائجة محتدمة لا همٌّ لها إلا أن تلتهم وتستأصل، وتأتي على كل ما تستطيع الإتيان عليه. فهو يقضي قضاءه لا ليعاقب المجرم على جريمته، ولا ليدفع عن المجتمع شروره وأثامه، بل ليجرح نفسه ويؤلمها، وينال منها أقصى ما يرى أنه كافٍ لشفاء حقه وإطفاء غلته، فيجازي على الشتم بالضرب، وعلى الضرب بالقتل، وعلى القتل بالتشويه والتمثيل. ولا يأبى أن يأخذ البريء بذنب المجرم، والجار بذنب الجار، فالانتقام جريمة كيفما كان الباعث عليه، والدافع له، وكل جريمة تترك في نفس صاحبها نصيباً من الألم والحسرة بمقدارها، ما من ذلك بد، ولقد صدق الذي يقول: إنَّ العفو مرارة ساعة، ثم النعيم إلى الأبد، وإنَّ الانتقام لذة ساعة، ثم الشقاء الدائم الذي لا يفنى.

عادت «إيلين» إلى غرفتها بعد ذهاب «لورين»، وكان الليل قد أظلمها، فجلست تراجع فهرس حياتها الماضية، وتقلب صفحاتها صفحةً صفحة، فشعرت بدبيب السامة والملل في نفسها، وخيل إليها أنها ستعيش بعد اليوم عيشةً تافهةً مملولةً لا طعم لها، ولا لذة

الانتقام

فيها، ورأت كأن سحابةً سوداء من شقاء الحياة وبؤسها تدنو منها شيئاً فشيئاً، وأخذت تسائل نفسها: هل أصابت فيما فعلت أم أخطأت؟ وهل سعدت بالانتقام أم شقيت؟ وهل كان خيراً لها أن تلقي بنفسها في عباب الماء عندما فكرت في ذلك يوم خروجها من سجنها، أم تعيش لتضحى بعرضها وكرامتها في سبيل انتقامها؟ وهل خرجت من المعركة التي خاضتها ظافرةً تمام الظفر، أم نالها من الخسران فيها ما يذهب ببهاء ذلك الانتصار الذي انتصرته؟

ولم تزل تسائل نفسها هذه الأسئلة فلا تسمع جواباً يرضيها، حتى مضى الليل إلا أقله، فحاولت أن تأوي إلى مضجعها فلم تستطع، وأن تسري عن نفسها بعض همومها فأعجزها ما أرادت، فلم تنقض دولة الظلام حتى كانت قد حكمت بنفسها أنها مجرمةٌ أثمة، وأنها لم تستفد من كل ما عملت سوى أنها باعت عرضها بأبخس الأثمان وأدانها، وأنها لم تسئ إلى الرجل الذي أرادت الانتقام منه بقدر ما أساءت إلى نفسها فقررت الالتحاق بأحد المستشفيات الخيرية لتكفر عن ذنبها بخدمة المرضى ومواساتهم طول حياتها، حتى يوافيها أجلها.

٦

دخلت المستشفى، وأخلصت إلى الله في عملها، فسهرت على المرضى وأحسنّت مواساتهم، وبذلت في ذلك الجهد ما يعجز غيرها عنه، حتى أصبحت مضرب المثل في صلاحها وتقواها، ورحمتها وإحسانها.

وكانت المحكمة قد حكمت على المسيو «لورين» بالسجن عامين، فلقي في سجنه من المتاعب والآلام ما لا طاقة لمثله باحتماله، فسقط مريضاً لا يحفل به أحد، ولا يواسيه مواسٍ، حتى اشتد به المرض، وأشرف على الهلاك، فنقلوه إلى المستشفى الذي كانت تعمل فيه «إيلين» فعرفته حين رآته برغم تغير صورته، واستحالة حالته، فلم تستطع أن تملك عينيهما من البكاء، وأخذت نفسها بتمريضه والعناية به، وظلت على ذلك عدة أيام وهو ناهل مستغرق لا يشعر بشيء مما حوله، حتى استفاق في ليلةٍ من الليالي فرآها واقفة بجانب سريريه تمد إليه يدها بالدواء، فظل يحدق النظر في وجهها طويلاً حتى عرفها، فتناهض من مكانه، وأكب على يدها يقبلها، ويسألها العفو عن ذنبه إليها، فازداد نشيجها وبكاؤها، وقالت له: إنني أنا التي أسأت إليك، وأنا التي أطلب منك العفو والصفح، وكأن حياتها الجديدة التي انتقلت إليها قد أنستها حياتها الأولى وأكاديبها

النظرات

وأباطيلها، فلم يبقَ في قلبها أثرٌ للبغض والموجدة، وأصبحت سريرتها بيضاء نقيّة لا تجول فيها غير خواطر الخير والإحسان، ولا تنطوي إلا على حب الإنسانية وحب الله. وهكذا ظلت تعالج هذا المسكين بإخلاص لا تضمّر مثله الأمّ لواحدها، وتقوم على خدمته ليلها ونهارها، ما تهدأ ولا تفتر، ولكن الداء كان قد تمكن منه، فلم يغن عنه العلاج شيئاً، وما هي إلا أيام قلائل حتى حضره الموت، فجلست بجانبه تعزيه وتواسيه، وتلقي في روعه أنّ الله قد غفر له جميع سيئاته في حياته بما كابد فيها من العلل والأسقام، والهموم والآلام، وأنّ جوار الله في دار جزائه خيرٌ له من جوار هذه الحياة الباطلة الفانية، حتى أسلم روحه بين ذراعيها.

وفي صباح اليوم الثاني رآها الناس سائرةً بهدوءٍ وسكونٍ في طريق الدير، وقد لبست مسوحها وسوادها، وعلقت صليبها على صدرها، حتى بلغته، ففتح بين يديها بابه العظيم الذي لا يخرج منه داخله إلى الأبد، فدخلته، وكان هذا آخر عهداها بالعالم وما فيه.

الخطبة الصامتة

لما بلغ أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير نعي أخيه مصعب بن الزبير أمير العراق، صعد المنبر فجلس عليه، ثم سكت، فجعل لونه يحمر مرةً، ويصفر أخرى، فقال رجل من قريش لآخر بجانبه: ما له لا يتكلم فوالله إنه لَلْخَطِيبُ اللّيب! فقال له الرجل: لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب فيشتد ذلك عليه، وهو غير ملوم إن جزع.

ووقف ليلة أمس سعد باشا زغلول في حفلة تأبين أخيه فتحي باشا زغلول، وأراد يقول كلمة قصيرة يشكر فيها القائمين بتلك الحفلة، فاختنق صوته بالبكاء وأرتج عليه، وهو الرجل الجلد الصبور الذي ما جزع في حياته قط، والخطيب المفوه الذي ما أرتج عليه مرةً في أصعب المواقف وأحرجها، وأذهبها بالعقول والألباب، فما أشبه هذا البطل الباكي، بذلك البطل الجازع.

وكذلك عظماء الرجال يظنون بدموعهم على نكبات الدهر وأرزائه أنفةً وإباءً، حتى إذا نزلت بهم كارثة من الكوارث التي لا أمر فيها إلا الله وحده لا يستحيون أن يقفوا بين يديه باذلين من شئونهم ما كانوا يظنون به من قبل.

على أن البكاء الذي حال بين سعد باشا وبين كلمته التي أرادها، لم يحل بينه وبين أن يكون أفصح القائلين في ذلك الموقف وأنطقهم، فقد خطب الخطباء وأنشد الشعراء من قبله ساعتين كاملتين، فكان كل ما كان لكلماتهم من الأثر في النفوس أن كان السامعون يتهامسون فيما بينهم بالإعجاب بفصاحة الفصيح، أو نباهة المؤرخ، أو بلاغة الشاعر، أو إبداع المبدع في معانيه، أو إحسان المحسن في إلقائه، حتى وقف هو وأرسل من جفنيه تلك الدمعة الحارة فبكى الناس جميعاً لبكائه كباراً وصغاراً، شيوخاً وشباناً، وكان مشهداً مؤثراً لم نر مثله في حفلة تأبين قبل اليوم، فكان لتلك الخطبة القصيرة

النظرات

الصامته المتفجرة من قلب مصدوعٍ مكلوم من الأثر في النفوس ما لم يكن لتلك الخطب
الناطقة الطوال.

ليس الذي يبكي صديقاً كان يأنس بحديثه، أو عالماً كان ينتفع بعلمه، أو كريماً
كان يستظل بظلال مروءته وكرمه، كمثل الذي يبكي شظايا قلبه.

اللفظ والمعنى

لم أرَ فيما رأيت من الآراء في قديم الأدب وحديثه أغرب من رأي أولئك الذين يفرقون في أحكامهم بين اللفظ والمعنى، ويصفون كلاً منهما بصفة تختلف عن صفة الآخر، فيقولون: ما أجمل أسلوب هذه القصيدة لولا أن معانيها ساقطة مرذولة! أو ما أبداع هذه القطعة لولا أن أسلوبها قبيح مضطرب! كأنما يخيل إليهم أن اللفظ وعاء، وأنَّ المعنى سائل من السوائل يملأ ذلك الوعاء، فتارة يكون خمراً، وتارة يكون خلّاً، ويكون حيناً صافياً وأخرى كدرًا، والوعاء باقٍ على صورته لا يتغير، وما علموا أنهما متحدان ممتزجان امتزاج الشمس بشعاعها، والخمر بنشوتها، فكما لا يجوز أن نقول: ما أجمل الشمس وأقبح شعاعها، ولا ما أعذب الخمرة وأمر نشوتها، كذلك لا يجوز أن نصف اللفظ بالجمال، والمعنى بالقبح، أو نعكس ذلك، فليعلم الناشئ المتأدب أنه ليس للفظ كيانٌ مستقل، ولا حيز خاص، فجماله جمال معناه، وقبحه قبحه، وأنَّ القطع الأدبية الشعرية أو النثرية التي نصف أسلوبها بالجمال إنما نصف بذلك معانيها وأغراضها، وأنَّ الذين يزعمون من الشعراء أو الكتاب أنَّ أساليبهم الغامضة الركيكة المضطربة تشتمل على معانٍ شريفة عالية كاذبون في زعمهم أو واهمون.

لا يضطرب اللفظ إلا لأنَّ معناه مضطربٌ في نفس صاحبه، ولا يغمض إلا لأنَّ معناه غامض في نفسه، ومحال أن يعجز الفاهم عن الإفهام، ولا المتأثر عن التأثير، ولا المقتنع عن الإقناع، وما البيان إلا المرآة التي ترتسم فيها صورة النفس، فحيث تكون جميلة فهو جميل، أو قبيحة فهو قبيح، أو مضيئة فهو مضيء، أو مظلمة فهو مظلم، فإذا استطعنا أن نتصور مرآة تكذب في تمثيل الصورة الماثلة أمامها، استطعنا أن نتصور بياناً يختلف في وصفه عن وصف نفس صاحبه.

النظرات

يقول القائلون بمذهب التفريق بين اللفظ والمعنى عن مثل هذه القطعة:

ولما قضينا من منى كل حاجةٍ ومسَّح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حذب المهاري رحالنا ولم يعلم الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

إنها جميلة الأسلوب، ولكنها تافهة المعنى، لا تشتمل على أكثر من الوصف والتصوير، كأنهم لا يعلمون أنَّ التصوير نفسه أجمل المعاني وأبدعها، بل هو رأس المعاني وسيدها، والغاية الأخيرة منها، وقد رسم الشاعر في كلمته هذه صورة واضحة للحجيج في حلهم ومرتلهم، يسمعا السامع بأذنيه وكأنه يراها بعينه، فقد أتى بأجمل الأساليب. وإن وصفاً قصيراً لحركة صغيرة من حركات النفس كقول الشريف:

وتلفتت عيني فمد خفيت عني الطلول تلفت القلب

لخير ألف مرة من قصيدة طويلة مملوءة بالمعاني الغريبة، والخواطر المبتكرة، لا تمثل الحقيقة، ولا تلتئم مع النفس ومزاجها، كقصيدة المتنبي التي مطلعها «أيطمع في الخيمة العذل» ويقولون أيضاً عن هذا البيت:

أنى يكون أبا البرية آدم وأبوك والثقلان أنت محمد

إنه قبيح اللفظ ولكنه جميل المعنى، وهم وأهمون فيما يقولون، فإن ذلك المعنى الجميل الذي يتوهمونه ليس معنى هذا البيت، بل المعنى الذي خطر على أذهانهم وانبعث في أفئدتهم عند سماعه، فألصقوه به إلصاقاً، وتوهموه له توهمًا، أما البيت نفسه فلا معنى له مطلقاً، وهذا شأن جميع المعاني الذي يتوهمها متوهموها عند سماع بيتٍ مستغلق، أو كلمة غامضة، فهي بأن تكون معاني السامعين أولى من أن تكون معاني القائلين.

إذا سمعت بيتاً من الشعر فأطربك، أو أحزنك، أو أقنعك، أو أرضاك، أو هاجك وأنت ساكن، أو هدأ روعك وأنت ثائر، أو ترك أي أثر من الآثار في نفسك، كما تترك النغمة الموسيقية أثرها في نفس سامعها، فاعلم أنه من بيوت المعاني، وأنَّ هذا الذي تركه

اللفظ والمعنى

في نفسك من الأثر إنما هو روحه ومعناه، وإن مررت ببيتٍ آخر فاستغلق عليك فهمه وثقل عليك ظله وشعرت بجمود نفسك أمامه، وخيل إليك أنك بين يدي جثة هامدة لا روح فيها، فاعلم أنه لا معنى له، ولا حياة فيه، فإن وجدت صاحبه واقفًا بجانبه يحاول أن يوسوس لك أن وراء هذه الظلمة الحالكة المتكاثفة نورًا متوهجًا يكمن في طياتها، فكذب، وفرّ بنفسك وأدبك منه فرارًا لا عودة لك من بعده.

هذا هو الميزان الذي يجب أن تزن به الكلام، ونصحتي إليك ألا تصدق تعريفًا واحدًا من تلك التعريفات المتعددة المتناقضة التي يضعها واضعوها من الأدباء لأشعارهم خاصة، ويزعمون أنها للشعر عامّة، واجعل شعور نفسك هو الميزان الذي تزن به ما تسمع، فكما أنك لا تعتمد على تعريفٍ من تعريفات الجمال، ولا تلجأ إلى قانونٍ من قوانينه عند وقوع نظرك على وجه امرأةٍ لمعرفة درجتها من الحسن، كذلك لا تعتمد في استحسان ما تستحسن من الكلام واستهجان ما تستهجن منه إلا على شعور نفسك وإلهام حسك.

الشعر نغمة موسيقية قبل كل شيء، ثم يأتي بعد ذلك جمال الوصف، وحسن التصوير، وتمثيل الحقيقة، واكتناه أسرار الكون، وتحليل مشاعر النفس، وأمثال ذلك من الأغراض والمقاصد، على أن تكون تلك النغمة الموسيقية أساسها، والروح السارية فيها، ليتحقق الفرق بين الشعر والفلسفة، فالفلسفة غذاء العقل برزانتها وهدوئها، وحججها وبراهينها، والشعر غذاء النفس برناته ونغماته، وأهازيجه ونبراته.

نظم الشعراء الشعر من عصر الجاهلية الأولى إلى اليوم، فمات جميع ما نظموا ولم يبقَ منه إلا البيت الموسيقي الرنان الذي لو لم يغنّه مغنّيه لغنى وحده، وسيموت شعر جميع الشعراء في هذا العصر ولا يبقى منه في المستقبل إلا كما بقي من الماضي في الحاضر.

الآداب العامة

يتحدث كثيرٌ من الناس عن فئةٍ من الشبان المصريين المتعلمين قد ظهرُوا في هذه الأيام، واتخذُوا لأنفسهم في حياتهم العامة طريقًا غير الطريق اللاتِّقة بهم وبكرامتهم وبمنزلة العلم الذي يزاوِلونه، فأصبحوا متبذلين في شهواتهم، مستهترين في ميولهم وأهوائهم، ينتهكون حرَمات الأعراس ما شاءوا وشاءت لهم نزعاتهم، ويعبثون بها في كل مكانٍ عبث الفاتك الجريء الذي لا يخاف مغبَّةً، ولا يخشى عارًا، وأهول ما يتحدثون به عنهم في هذا الشأن أنهم يغررون الطالبات الصغيرات اللواتي لا يزلن يختلفن إلى مدارسهن، أو اللواتي انقطعن عنها منذ عهد قريب إلى منازلهن، وينصبون لهن صنوف الحبائل وأنواع الأشرار لاصطيادهن وإسقاطهن في هوة الإثم والعار، وهذا ما أريد أن أنكلم عنه قليلًا.

أصحيحٌ ما يقولون عنكم أيها الفتيان التعسوس أنكم تتخذون صلة العلم — التي هي أشرف الصلات وأكرمها — صلة فسادٍ بينكم وبين أولئك الفتيات الضعيفات، وأن الحباله التي تنصبونها لهن لاصطيادهن إنما هي حباله القلم الذي هو أفضل أداة للخير، وأعظم وسيلة للفضيلة، وخير واسطة للأدب والكمال؟

أصحيحٌ ما يقولون عنكم أنكم تكتبون إليهن ليكتبن إليكم، وتهدون إليهن صوركم ليهدين إليكم مثلها، فإذا امتلأت حقائبكم وجيوبكم بصورهن ورسائلهن أخذتم تنشرونها في كل مكانٍ وتعرضونها في كل معرضٍ، وأخذ بعضكم يفاخر بعضًا بكثرة ما يملك منها، أو بجماله ورونقه، كما يفخر المرء بأفضل المزايا وأشرف الخصال؟ أصحيحٌ أنكم تقفون لهن بكل طريقٍ، وتأخذون عليهن كل سبيلٍ، وتضايقونهن في مغداهن ومراحهن، وحيث ذهبن إلى عملٍ، أو خرجن لزيارةٍ، أو برزن في مجتمعٍ،

النظرات

فإذا عجزتم عنهن في الطريق أرسلتم وراءهن الرسل في منازلهن يخادعنهن ويخاتلنهن، وربما توسلتم إليهن بأخواتكم وبنات أعمامكم ليسفرن بينكم وبينهن، ويداخلنهن مداخلة الأصدقاء حتى يجتذبنهن إلى منازلكم؟

أصحيحُ أنكم تقضون أكثر لياليكم مكبين على كتابة رسائل الغرام، وأكثر أيامكم حائمين حول المنازل تنتظرون خدما الذين اصطنعتموهم ليحملوا رسائلكم إلى ساكنيها، وربما جلستم على أبوابها بجانب البوابين والحوذيين ترقبون نوافذها وكواها عليها تنفرج لكم عن تحبون؟

أصحيحُ أنكم أصبحتم لا تقنعون في أمر أولئك الفتيات البائسات اللواتي يقعن في مخالبتكم بإفساد أخلاقهن حتى تسجلوا عليهن ذلك الفساد تسجيلًا موقعًا عليه بتوقيعاتهن، مستشهدًا عليه بصورهن وخطوطهن، لتملكوا عليهن أمرهن بعد ذلك، وتحولوا بينهن وبين النفلت من أيديكم، والحياة بعيدًا عنكم، في جو غير جوكم، وجوارٍ غير جواركم، عذارى أو متزوجات؟

أصحيحُ أنكم لا تكفون بإفساد نفوسهن وضمائرهن، حتى تفسدوا عليهن عقولهن وصحتهن، فتشركوهن معكم في شرب الخمر وتناول المخدرات سائلها وجامدها، فلا تلبث أن تنتهي حياتهن بما تنتهي به حياة النساء الساقطات اللواتي يلفظن أنفسهن الأخيرة في أقبية الحانات أو بين جدران المواخير؟

أصحيحُ أنكم فقدتم في تلك السبيل التي تسلكونها خلق الرجولة والشهامة، فأصبحتم تتجملون للنساء بأخلاق النساء، وتزدلفون إليهن بمثل صفاتهن وشمائلهن، وأصبح الرجل منكم لا هم له في حياته إلا أن يتجمل في ملبسه، ويتكسر في مشيته، ويرقق من صوته، ويلون ابتساماته ونظراته بألوان التضعضع والفتور، ويقضي الساعات الطوال أمام مرآته متعهدًا شعره بالترجيل، وبشرته بالتضخيم، وثناياها بالصقل والجلاء، حتى صار ذلك عادة من عاداتكم التي لا تنفك عنكم، وحتى سرى التأثت من أجسامكم إلى نفوسكم، فلم يبقَ فيكم من صفات الرجولة وأخلاقها غير الأسماء والألقاب؟

إن كان حقًا ما يقولون كله أو بعضه فرحمة الله عليكم أيها الفتيان المساكين، وسلامٌ على الفضيلة والشرف سلام من لا يرجو عودةً، ولا ينتظر إيابًا.

إنَّ هذه الفتاة التي تحتقرونها اليوم وتزدرونها وتعبثون ما شئتم بنفسها وضميرها، إنما هي في الغد أم أولادكم، وعماد منازلكم، ومستودع أعراضكم ومروءاتكم، فانظروا كيف يكون شأنكم معها غدًا، وكيف يكون مستقبل أولادكم وأنفسكم على يدها.

أين تجدون الزوجات الصالحات في مستقبل حياتكم إن أنتم أفسدتم الفتيات اليوم؟ وفي أي جو يعيش أولادكم ويستنشقون نسمات الحياة الطاهرة إن أنتم لوثتم الأجواء جميعها وملأتموها سموماً وأكداراً؟

لا تتكون أخلاق الفتاة في عهد طفولتها أو في عهد شيخوختها، بل في عهد شبابها، فإذا سلم لها ذلك العهد فقد سلم لها كل عهدٍ بعد ذلك، فدعوها تجتز هذه المرحلة الوحيدة من مراحل حياتها شريفة طاهرة، تجدوا فيها بعد قليل من الزمن خير زوجة للزوج، وخير أم للولد، وخير سيديّة للمنزل.

لا تعجلوا عليها وانتظروا بها قليلاً لتستطيعوا أن تجدوها غداً زوجة طاهرة شريفة في منازلكم، بدلاً من أن تجدوها فتاةً ساقطةً مزدراً مطرحة على أعتاب المواخير والحانات.

لا تزعموا بعد اليوم أنكم عاجزون عن العثور بزواجٍ صالحاتٍ شريفات يحفظن لكم أعراضكم، ويحرسن سعادتكم وسعادة منزلكم، فتلك جناية أنفسكم عليكم، وثمرة ما غرست أيديكم، ولو أنكم حفظتم لهن ماضيهن لحفظن لكم حاضرهم ومستقبلكم، ولكنكم أفسدتموهن، وقتلتم نفوسهن، ففقدتموهن عند حاجتكم إليهن.

إنني لا أفرغ في أمركم إلى القانون، فالقانون في هذا البلد مدني لا أدبي، ولا إلى الحكومة، فالحكومة مشغولةً بشأن نفسها عن شأن غيرها، ولا إلى الدين، فقد ضعف شأنه في نفوسكم حتى هان أمره عليكم، ولا آبائكم وأولياء أموركم، فقد عجزوا عنكم، وأصبحوا ييكون مع الباكين عليكم. بل أفزع في أمركم إلى ضمائركم التي هي الأمل الباقي لنا بعد فقد جميع آمالنا فيكم، فأصغوا إلى صوتها ساعةً تسمعوا منها هذا الرجاء الذي نرفعه إليكم، وصوت الضمير أقوى من كل صوتٍ في العالم.

أصغوا إليه تسمعه يقول لكم: إنَّ هؤلاء الفتيات اللواتي لا تستحيون أن تمدوا إليهن أعينكم وأيديكم إنما هن أخواتكم الحميمات، يجمعكم وإياهن أب واحد وهو النيل، وأم واحدة وهي البلد، وشرف الأخوة هو الملجأ الأمين لأعراض الأخوات وشرفهن.

يجب ألا يفتح قلب الفتاة لأحدٍ من الناس قبل أن يفتح لزوجها، لتستطيع أن تعيش معه سعيدةً هانئةً لا ينغصها ذكرى الماضي، ولا تختلط في مخيلتها الصور والألوان، ولا أعرف فتاةً في هذا البلد بدأت حياتها بغرام قط فاستطاعت أن تتمتع بعده بحب شريف. ولا أزال أذكر حتى اليوم حادثة ذلك الفتى الذي أهدت إليه حبيبته رسمها موقعاً بتوقيعها، فلما تزوجت — وكان لا يجب ذلك منها — أراد الانتقام منها فقطع رأس

النظرات

الصورة ووضعها على جسم عارٍ بتلك الطريقة الفنية المعروفة، ثم أرسلها مع كتاب وشايةٍ إلى زوجها ليلة عرسها، فما لبثت أن خسرت في لحظةٍ واحدةٍ سمعتها وسعادتها. وحدثني من أثق به أن كثيراً من الفتيات الفاسدات لا يتزوجن إلا بعد أن يأخذن على أنفسهن عهداً أمام أخلائهن أن يكنَّ لهم بعد الزواج؛ أي بعد أن يصبحن مطلقاتٍ من قيود العذرة وروابطها. وقلما تتزوج فتاة ذات صلاحٍ فاسدة من رجل إلا وردت عليه ليلة البناء بها أو في صبيحتها كتب الوشاية بها من الأشخاص الذين اتصلت بهم، وأخلصت إليهم، فانتهمى أمرها في حياتها الجديدة بالشقاء والعار.

نحن في حاجة إلى أن نعلم بناتنا؛ لأننا لا نريد أن يعشن جاهلاتٍ متأخرات، فنتنحو عن طريقهن أيها الغواة المفسدون ليستطعن أن يختلفن إلى مدارسهن آماناتٍ مطمئناتٍ على نفوسهن وأعراضهن، ولا تزعجهن بفضولكم وإسفافكم، فإننا لم نبعث بهن في تلك السبيل ليفسدن شرفهن وعفتهن، بل ليضفن إلى فضيلة الأدب والكمال فضيلة العلم والمعرفة.

أفسحوا الطريق لهن، وأفسحوا للعاملة الخارجة في طلب رزقها، والأرامل المسترزقة لبنيتها، والفقيرة العاجزة عن قضاء حاجتها إلا بنفسها، والذاهبة لصلة رحمها، والسائرة لزيارة قبر فقيدها، ولا تكونوا حجر عثرة في سبيل حرية المرأة في ذهابها وجيئتها واضطرابها في مذاهب الأرض سعياً وراء رزقها، وقضاء مصالحها، فإن أبيت عليها ذلك فاعترفوا أنكم أعداؤها القساة المتوحشون؛ لأنكم تأبون عليها إلا إحدى الخطتين القاتلتين: إما الجهل الدائم، أو السقوط العظيم.

الفضيلة الفضيلة أيها القوم! فهي العزاء الوحيد لهذه الأمة المسكينة عن جميع آلامها ومصائبها، والأمل الباقي لها إن ضاعت — لا قدر الله — جميع آمالها وأمانيتها. والشرف الشرف! فريما جاء يوم ندير فيه أعيننا من حولنا فلا نجد مما تملك أيدينا شيئاً سواه.

المؤتمر الإسلامي

سرنى منظر ذلك الرجل العظيم، والداعي الكريم، وهو قادمٌ إلى مصر يجتاز التخوم، ويتخطى البلدان، ويطوي الغبراء طي الكواكب الخضراء، يقوده الأمل، ويسوقه الرجاء، وبين جنبه همةٌ عالية، ونفس كبيرة، وقلب مشيع، وفؤاد في الأفئدة كالنسر في الطيور، يلحق في جو الإسلام تحليق من يحاول أن يظله بجناحيه.

سرنى منظره، وإن لم أره، وهو قائمٌ بين جماعة المسلمين يحاول أن يرأب صدعهم، ويلم شعثهم، ويجمع كلمتهم، ويؤلف بين قلوبهم، ويدعو إلى الله تعالى دعوة النبوة الأولى، إلا أن تلك عربيةٌ تدعو الأعجمية، وهذه أعجميةٌ تدعو العربية الفصحى.

هنا ذكرت الإسلام ومجده، والإسلام وجنده، والإسلام ودولته، والإسلام وصولته، وذكرت أبا بكر وهو يقاتل أهل الردة ويقول: والله لو منعوني عقال بعيرٍ لقاتلتهم عليه. وذكرت عمر وهو واقف في مرابض المدينة في حَمَارَةِ القَيْظِ يستقبل شبحاً أسود يرفعه الال ويخفضه، ويطويه الأديم وينشره، حتى اقترب منه فتبينه فإذا هو أعرابيٌّ قادمٌ من سواد العراق، فجعل يسايره وهو راجل والأعرابي راكب لا يعرفه، ويسأله ما فعل الله بسعد وجنده، فيحدثه القادم عن فتح القادسية والمداين، وما أفاء الله به على المسلمين من عرش كسرى وذخائره، وتراث مرابته ودهاقينه، وعمر لاه عن نفسه سروراً بما سمع، وفرحاً بما تم. وذكرت صلاح الدين وهو يقود الجحفل اللجب والجيش العرمرم، إلى حيث يستنقذ الثغور، ويستخلص الأمصار، ويخوض جمرة الحرب المتأججة ليفتدي بنفسه أجساماً إن لم تلتهمها النيران فكأن قد. وذكرت محمداً الفاتح وهو يلعب بكره الأرض لعب الصبي بكرته، ويخترق بسفائن البحر رمال القفر، حتى نزل بالقسطنطينية نزول القضاء من السماء، وسجد في معبد «أيا صوفيا» سجدة الشكر لله على نعمته وحسن توفيقه. وذكرت صقر قريشٍ وقد طار من الشرق إلى الغرب فأنشأ وحده دولةً

النظرات

خضعت لها أفريقيا وبعض أوروبا. وذكرت مع أبطال الحرب أبطال السلم، فذكرت عمر بن عبد العزيز وعدله، والمأمون وفضله، والغزالي وحكمته، وابن رشد وفلسفته، ومعاقبة وسياسته، وعبد الملك وكياسته. وذكرت مدارس بغداد، وبخارى، والإسكندرية، والقاهرة، وغرناطة، وأشبيلية، وقرطبة. وذكرت مترجمي كتب إقليدس وبطليموس وأرسطو، وواضعي علوم الجبر والمقابلة والكيمياء. وذكرت مخترعي البندول والبوصلة «بيت الإبرة» والساعة الدقاقة التي أهداها الرشيد إلى «شارلمان» ملك فرنسا، ففزع منها سامعوها فزعاً شديداً وسموها شيطاناً رجيماً، أو آلهة سحرية، أو مكيدة عربية ... إلى كثيرٍ من أمثال هذه الآثار العربية، والمفاخر الإسلامية.

ثم ذكرت الإسلام إذ ضربه الدهر بضرباته ورماه بنكباته، أصبح أثرًا من الآثار، وخبرًا من الأخبار، وعليلًا حار فيه أطباؤه، وملء عواده، وظل مترجمًا بين داهيتين، ومضطربًا بين غايتين، إما أن يموت موتةً أبديةً وبالله العياذ، أو يحيا حياة مادية، لا حياة أدبية، وينهض جامعة تجارية، لا جامعة دينية، ما دامت المادة قاعدة الحكومات، وما دامت الحكومات عدوة الأديان، وما دامت الأديان لا تستطيع التحليق إلا في فضاءٍ من الحرية لا ينتهي البصر فيه إلى مدى؛ لذلك أحزنني عند سماع خطبة الخطيب ما يحزن الأسيب من ذكرى الشباب إذا عثر بين أوراقه البالية على رسائل الحب، وأناشيد الغرام، وأمضني ما يمض العاشق المفارق إذا مر بالآثار وأطلال الديار فرأى النوى والأحجار، وموقد النار، ومجال الخيول، ومجر الذبول، فذكر ما كان ناسياً، وهاج من وجده ما كان كامناً، فبكى واستعبر.

وود بجذع الأنف لو عاد عهدا وعاد له فيها مصيف ومربع

ليست الجاهلية الأولى بأحوج إلى الإصلاح الديني من الجاهلية الأخرى، بل ربما كانت هذه أحوج من تلك إليه.

كانت الجاهلية الأولى تعبد الأوثان لتقربها إلى الله زلفى، وجاهليتنا تعبد الأحجار والأشجار، والأحياء والأموات، والأبواب والكوى، والقواعد والأساطين تبركاً، أو تقريباً، لفظان مترادفان، مختلفان لفظاً متفقان معنى، ومن ظن غير ذلك فقد خدع نفسه.

كانت الجاهلية الأولى متفرقةً قبائلً وشعوباً، وجاهليتنا متفرقةً منازلً وبيوتاً، بل آحاداً وأفراداً، فلا تراحم ولا تواصل، ولا تعارف ولا تعاطف حتى بين الأخ وأخيه، والأب وبنيه.

كانت جاهليتهم تسفك الدماء في طلاب الأوتار، وجاهليتنا تسفكها في سبيل السرقات وقضاء الشهوات، وكان أقطع ما في جرائمهم وأد البنات، فصار أخف ما في جرائمنا الانتحار، وكان بعضهم يبغى على بعض بسرقة ماله، أو استياق ماشيته، ففعلنا مثل ما فعلوا، وفوق ما فعلوا، ثم فضلناهم بعد ذلك بتزوير الأوراق، وتحريف الصكوك، وتقليد الأختام، والبراعة في النصب والاحتيال، يكاد يستوي في ذلك العالم والجاهل، والشريف الهاشمي والفلاح القروي.

وليتنا إذ أخذنا جاهليتهم أخذناها كما هي رذائل وفضائل فيهبون على المصلحين أمرها، ولكننا أسأنا الاختيار، فلنا خرافاتهم الدينية وأدواؤهم الاجتماعية، وليس لنا كرمهم ووفائهم، وغرتهم وحميتهم، وعزتهم ومنعتهم، فكيف لا يكون الأمر خطيراً؟ وكيف لا تكون الجاهلية الأخرى أحوج إلى دعوة كدعوة النبوة من الجاهلية الأولى؟

نبئني عن الإسلام أين مستقره ومكانه؟ وأين مسلكه ومضطربه؟ وفي أي موطن من المواطن حل، ومعهد من المعاهد نزل؟ أي الحانات والمواخير التي يغص بها الفضاء، وتئن منها الأرض والسماء، والتي ينتهك فيها المسلمون حرمت دينهم بلا خجل ولا حياء، كأنما هم يشربون الماء الزلال، ويغشون البضع الحلال؟ ولقد هان عليهم أمر أنفسهم حتى لو وجدوا بينهم من يرى التقية في عمله، أو الاحتشام في أمره، سموه جبناً جامداً، أو متكلفاً بارداً، كل ذلك على مرأى ومسمع من الحكومة الإسلامية، والمعاهد الدينية، والقضائين الشرعي والنظامي؟

أم في حوانيت الباعة حيث الغش الفاضح والغبن الفاحش مزخرفاً بالأقوال الكاذبة والأيمان الباطلة؟

أم في مجالس الأحكام حيث للدينار الأحمر السلطان الأكبر على سلطان العدل وسلطان الذمة وسلطان الشرائع، اللهم إلا ما كان من تلك الألواح المكتوبة فيها «العدل أساس الملك.» أو «وإذا حكمتكم بين الناس أن تحكموا بالعدل»؟

أم في المساجد حيث يعتقد المصلون أنه لو كان بين الصلاة والصلاة مائة عام، وكانت تلك الأعوام مملوءة بالآثام والجرائم، والمفاسد والمظالم لكفت تلك الحركات — التي يسمونها صلواتٍ، ويحسبونها حسنات — لغفران تلك السيئات؟

أم في معاهد الدين حيث يتلقى المتعلمون الدين جسماً بلا روح، وعلماً بلا عمل، كأنما يتلهون بدراسة إحدى الشرائع الدائرة، أو أحد الأديان الغابرة، وحيث يتلقون كشكولاً عجيباً وخلقاً غريباً من الأكاذيب والترهات، فلا تكاد تسمع من أفواههم إلا

النظرات

حديثاً موضوعاً، أو قولاً مصنوعاً، أو خرافةً تاريخية، أو بدعةً دينية، وحيث يقضون حياتهم في المناظرات والمجادلات، والتحاسد والتباغض، والتقاطع والتدابير، وهي بعينها الأخلاق والرذائل التي ما جاءت الأديان إلا لمحاربتها والقضاء عليها، فهم يهدمون من حيث يظنون أنهم يبنون، ويسيتون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا؟

أم في مجالس المتصوفة حيث الألعاب الجمبازية، والحركات البهلوانية والسرقات باسم العادات، وانتهاك الحرمات بعنوان البركات؟

إن أراد المصلحون لأنفسهم نجاحاً، وللإسلام صلاحاً، فليبدءوا عملهم بتهذيب العقائد الدينية، وتربية النشء الحديث تربيةً إسلامية لا تربية مادية؛ أي أنهم يدخلون إلى الإصلاح من باب الدين لا من باب الفلسفة، حتى يجمعوا للمسلمين بين صلاح حالهم ومآلهم، ودنياهم وآخرتهم، وحتى يكون الدين هو الزاجر والمؤدب، والمعلم والمهذب، فالإسلام وإن كان دين العقل والفطرة، والتهذيب والإصلاح، إلا أن الخطر كل الخطر على المسلمين أن يكون في نظرهم تابعاً للعقل، وأن يكون العقل هو الحكم بينهم وبينه. والخير كل الخير في أن يكون الدين حاكماً والعقل مفسراً ومبيناً. فإذا تم ذلك للمصلحين بالرفق والأناة والحكمة والسياسة فقد تم لهم كل شيء، وتم للمسلمين ما يريدونه من الجامعتين الدينية والسياسية، كما تم لهم ذلك في العهد الأول من هذا الباب نفسه، وفي هذه الجادة المستقيمة، فهل يستطيع دعاة الإصلاح في الجاهلية الحاضرة أن يكونوا كدعاته في الجاهلية الأولى؟ وهل يستطيعون أن يخلصوا الله في عملهم جادين مثابرين، لا تأخذهم فيه هواده، ولا عنه سنة، وألا يرى أحدهم لنفسه على أخيه فضلاً إلا بالإيمان والتقوى، وأن يرى كل منهم نفسه بمنزلة المجاهد في سبيل الله، يتحمل الأذى ويستسهل الوعر، ويحتمل الكريهة، ولا يجعل لليأس إلى قلبه سبيلاً، ولا للهوان على نفسه سلطاناً؟ هل يستطيع المصلحون أن يكونوا كذلك ليصلحوا في الآخرين ما أصلح المصلحون في الأولين؟ «لست أدري ولا المنجم يدري»:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

في أكواخ الفقراء

مترجمة

مضى الليل إلا قليلاً والظلام مخيمٌ على الكون بأجمعه، والكواكب متلفعة بأردية السحب، ما يستشف منها الناظر بصيصاً ولا قبساً، والفضاء بحرٌ خضمٌ مترامي الأرجاء إلا أنه ساكن الصفحة، هادئ النأمة، يقصر فيه قاب العين، وتضل في تيهه أشعة النظر حتى عن نفسها. والغيوث منهلةٌ متواصلة، تهمني بقوةٍ واحدةٍ وقوامٍ واحد، لا تغزر ولا تترق، ولا تضطرب خيوطها، ولا تختلف نغمتها كأنما هي شباكٌ ممتدة بين السماء والأرض. وكوخ السمك «فيليب» جاثم في مجثمه بين الأكواخ المحيطة به، لا يرى فيه الداخل غير مصباح ضئيل تجاهد ذبالته جهاداً شديداً في تمزيق قطع الظلام المتكاثفة حولها، وغير مجمرة هامة قد خبت نارها إلا بقايا جمراتٍ شاحبات قد التفت بأكفانها البيضاء، وأخذت طريقها في مدرجة الفناء.

وقد يرى الناظر على ضوء ذلك المصباح الضئيل بضع شبكات معلقة بالجدران كأنها الأشباح الماثلة، ومنضدة عارية قد نشرت فوقها بضعة أنية نحاسية تلمع لمعاناً ضعيماً في ذلك الحندس كأنها عيون الجنادب، فإذا دار الواقف بنظره حوله رأى حشية مبسوطة على الأرض قد اضطجع فوقها ثلاثة أطفال متلاصقين أخذ بعضهم بأعناق بعض، كما تتأخذ الأفراخ في أعشاشها، وكما يضم الخوف الضلوع بعضها إلى بعض. وعلى مقربةٍ من فراشهم امرأةٌ صفراء شاحبةٌ جاثية على ركبتيها تصلي وتبتهل وتدعو الله تعالى بصوتٍ خافتٍ متهافت أن يرد لها زوجها سالماً، وكان قد خرج كعادته لصيد السمك من البحر فلم يعد حتى الساعة.

النظرات

وإنها لذلك إذ هبت الزوبعة هبوبًا عظيمًا، فاهتزت لها جوانب الكوخ اهتزازًا شديدًا، وأنَّ لوقعها الأطفال في لفائفهم، فطار قلبها فزعًا ورعبًا، وخيل إليها أنَّ هدير الأمواج، ودمدمة الرعود، وزفيف الرياح، وقعقة السقوف والجدران إنما هي نذر السوء تنذرنا بمصير زوجها المسكين في أعماق ذلك الأوقيانوس العظيم. فظلت تردد بينها وبين نفسها: رب إني بائسة مسكينة، لا سند لي ولا عضد، وإنَّ هؤلاء الأطفال الصغار عاجزون لا يستطيعون أن يقوتوا أنفسهم، ولا أن يعتمدوا على حولهم وحيلتهم في شئون حياتهم، فاحفظ لي ولهم حياة ذلك الرجل المسكين الذي أسلم أمره إليك، وأودع حياته بين يديك، وخرج في طلب الرزق من ساحتك ليعود به على هذه الأسرة الفقيرة المعدمة فلم يعد حتى الساعة، ولا ندري ما فعلت به يد الأقدار.

ما أعظم بؤسنا وشقاءنا نساء الصيادين وأولادهم!

إنهم يتركوننا وحدنا في هذه الأكواخ الموحشة، ويذهبون لطلب العيش في ذلك التيه المائي العظيم الذي لا نهاية لعمقه، ولا حد لاتساعه، ولا عاصم من مخاطره. ويحاولون انتزاع أرزاقهم من بين ماضغي تلك الأمواج الثائرة الفاغرة أفواهها كالذئاب الجائعة، تحاول التهام كل ما يدنو منها. ولعل القدر الذي نخشاه عليهم في هذه الساعة قد نزل بهم، فلم تغن عنهم شيئًا تلك الرقائق الخشبية المتلاصقة التي يسمونها زوارق، ولعلمهم لبثوا ساعات طوالًا يصارعون الأمواج وتصارعهم حتى غلبتهم على أمرهم، فداروا بأعينهم حولهم ليفتشوا عن زوارقهم المنقلبة فلم يروا منها إلا بقاياها المتطايرة في مهاب الرياح، فحاولوا أن يسبحوا إليها فأفلتت من أيديهم، فنال منهم العياء، فهوروا إلى ذلك القاع العميق ليصبحوا فيه طعامًا للأسماك التي كانوا يظنون منذ ساعة أنها ستصبح طعامًا لهم.

هنالك يأتينا نعيهم فنبكي ونندب، ونهرع إلى الشاطئ واليهين مدلهين، ونقف أمام ذلك العالم المجهول الغامض صائحين أن رد إلينا أيها الوحش المفترس بعولتنا وأولادنا، وأفلان أكبادنا، أو تكشف عن نفسك قليلًا علنًا نرى جثثهم في قاعك العميق، فلا نسمع ملبيا ولا محيبًا.

وهنا هدأت الزوبعة قليلًا، وخفتت أصوات الرياح، فسكن بعض ما بها، ونهضت من مكانها فتناولت المصباح وفتحت باب الكوخ وقلبت وجهها في السماء لترى كم بقي بينها وبين الصباح. وكان الظلام لم يزل حالكا والمطر لم يزل منهلا، فمدت يدها بالمصباح أمامها لترى هل من مقبل يتقدم، أو شبح يتحرك، فلم يقع نوره إلا على كوخٍ

في أكواخ الفقراء

بعيد منفرد لا نور فيه ولا حركة. فتذكرت حينما وقع نظرها عليه أنه كوخ تلك الأرملة المسكينة «جانث» التي مات زوجها غريقاً منذ بضعة أشهر وخلف لها أطفالاً صغاراً تقاسي الآلام الشداد والأهوال العظام في تدبير عيشهم، وتقويم أودهم، فمر بخاطرها أن تزورها وتتعرف حالها؛ لأنها كانت تعلم أنها مريضة مدنفة، وأنها كابدت ليلة أمس من دائها عناءً عظيماً، وأقرب ما تكون النفوس إلى النفوس إذا جمعتها في صعيدٍ واحدٍ هموم الحياة وآلامها. فأخذت طريقها إلى ذلك الكوخ حتى بلغته، فوقفت على بابه وقرعته مراراً فلم يرد عليها أحد، فدفعته ففتح، فدخلت رافعةً مصباحها أمامها فأنار لها ما حولها، فرأت بين يديها ما أَرعد فرائصها، واستوقف دقات قلبها، وأمسك الدم عن جريانه في عروقها.

رأت الكوخ يهتز ويضطرب في أيدي الرياح المتناوحة، ورأت مياه الأمطار تسيل من سقفه الواهي الأخرق فتبلل كل شيء فيه، ورأت فراشاً قذراً من القش قد رقدت فوقه الأرملة «جانث» رقدةً ساكنةً جامدة لا حس فيها ولا حركة. فدنت منها ولمستها بيدها، فإذا هي ميتةٌ، وإذا قطرات من الماء تتحدر من السقف على جبينها ورأسها وغطائها البالي الممزق. فوقفت أمام هذا المنظر المخيف المرعب ذاهلةً مشدوهة، ثم صاحت: هذه نهاية الفقراء على ظهر الأرض، وهذا مصيرهم الذي يصيرون إليه بعد جهادهم في سبيل الحياة زمناً طويلاً، إنهم يعيشون في هذا العالم مجهولين مغمورين لا يعرفهم أحد، ثم يخرجون منه متسللين متلاوذين لا يشعر بخروجهم حتى أهلوهم وذوو أرحامهم. ما يدريني ألا يكون مصيري ومصير أولادي غداً هذا المصير الذي أراه الآن، وقد لا تدخل عليّ في تلك الساعة جارةٌ من جاراتي تراني وترثي لحالي كما أرثي الآن لحال هؤلاء المساكين؟

ثم خلعت رداءها فأسبلته على جثة الميتة، ودارت بمصباحها في أنحاء الغرفة فرأت طفليها الصغيرين نائمين على فراشهما وجهاً لوجه، وعلى ثغر كل منهما ابتسامة صغيرة، كأن شبح الموت الهائم حول مضجعهما لا يخيفهما، ولا يزعج سكونهما. ورأت رداء أمهما — وكانت تعرفه قبل اليوم — مسبلاً عليهما، فخيل إليها أنها ترى منظر تلك المرأة المسكينة قبل ساعة أو ساعتين وهي تعالج في فراشها سكرات الموت، ثم تلتفت من حين إلى حين إلى طفليها النائمين، والمطر يتساقط عليهما والبرد يعبث بأعضائهما، فتشفق عليهما، وترثي لهما، حتى ضاقت بها ساحة الصبر، فخلعت عنها رداءها — وهي أحوج ما تكون إليه — وألقته عليهما، ثم أَلقت بنفسها على فراشها وأسلمت روحها.

وقفت «ماري» أمام هذه المناظر المؤلمة، والريح تئن أنين الوالهيين المتسلبين، والموج يعج عجيج أجراس الموت، وقطرات الماء تنحدر من جبين الميتة إلى خديها الشاحبين كأنما هي تذرف دموع الحزن على فراق ولديها. وكان الفجر قد أخذ يمسح عن وجهه صبغة الظلام، ويرسل بعض أشعته في جوانب الكوخ، فأطفأت «ماري» المصباح الذي بيدها ووضعتة جانباً، ثم جثت بجانب الميتة وصلت لها ما شاء الله أن تفعل، ثم نهضت ومشت إلى مكان الطفلين وحملتتهما برفق وسكون، ومشت بهما حتى بلغت كوخها، فأضجعتهما بجانب طفليهما، وأسبلت عليهما جميعاً رداءً واحداً.

ثم جلست بجانبهم تقول بينها وبين نفسها: لا أدري أأصبت فيما فعلت أم أخطأت؟ وإنما أدري أنّ المرأة التي أودع الله قلبها شعور الأمومة وإحساسها لا تستطيع أن ترى طفلين طريحين على فراشهما في كوخ عارٍ من كل شيء إلا من جثة أمهما، فتتركهما وشأنهما دون أن تعلم ما مصيرهما بعد ذلك.

إنّ المنظر الذي رأيته ما كان يسمح لي بالتفكير في نتيجة العمل الذي أعمله، فإن تبين لي بعد ذلك أنني مخطئة فليس معنى هذا أنني كنت أستطيع تجنب الوقوع في هذا الخطأ؛ لأنّ قلبي من لحم ودم، لا من فولاذ وصوان.

نعم إنّ زوجي فقير، وإنّ طفليّ معدمان بائسان لا يكادان يشبعان من الخبز، وإنّ عناينا في تربية أربعة أطفال سيكون ضعف عناينا في تربية طفلين، ولكن لا يجوز لنا — ضناً براحة أنفسنا — أن نترك طفلين صغيرين يموتان — على مرأى منا ومسمع — برداً وجوعاً.

ذلك ما سأقوله لزوجي عند رجوعه، وما أحسبه قاسياً ولا متوحشاً فينكر عليّ فعلتي هذه، ويأمرني بإلقائهما خارج الباب.

ثم وقفت عن الكلام فجأة؛ لأنها سمعت صرير الباب وهو يدور على عقبه، فارتعدت، ثم علمت أنها الريح، فأطرقت برأسها ساعة ذهبت فيها بتصوراتها وأفكارها كل مذهب، فبكت وضحكت، وغضبت ورضيت، وأملت ويئست، ورحمت وقست، وحمدت وفعلتها، وندمت عليها، وأحسنن الظن بزوجها، وأسأته به. وظل فؤادها نهياً مقسماً في يد الهموم والأفكار حتى شعرت بسوادٍ يتقدم نحوها، فاستطير قلبها خوفاً ورعباً، وانتبهت فإذا زوجها داخل يحمل شبكته على ظهره والماء يقطر منها، فنهضت وعانقته، ثم ألقت نظرها على وجهه فأنكرت شحوبه وتضعضه كما أنكر ذلك منها حين رآها. وسألته كيف كان حظه الليلة، وماذا كان شأنه مع العاصفة؟ فألقى بشبাকে وقصبه على الأرض

في أكواخ الفقراء

وظل يقول لها: أما الليلة فكانت مزعجةً جدًّا لم أرَ في حياتي مثلها، وأما الصيد فما هي ذي يدي صفر منه كما ترين، ولولا رحمة الله بي وبكم لهلكت، وما أنا بأسف على شيءٍ ما دمت أراكم بخير ... وكيف حال الولدين؟ فارتعشت وقالت: هما بخير، قال: ما لي أراك شاحبةً صفراء؟ وكيف قضيت ليلتك؟ فأطرقت برأسها وقالت: قضيتها في خياطة قميصين للولدين، وكنت كلما سمعت صوت العاصفة وهدير الأمواج خفت عليك، أما الآن فقد زال كل شيء والحمد لله. ثم نظرت إليه وبين شفيتها كلمة تحاول أن تنطق بها فلا تستطيع، ثم استنصرت جدها وقوتها وقالت: شيءٌ آخر أحزنني جدًّا، قال: وما هو؟ قالت: قد علمت الساعة قبل رجوعك بقليلٍ أنّ جارتنا «جانت» قد لبث دعوة ربها، وأنّ ولديها الصغيرين قد أصبحا وحيدين في هذا العالم لا عائل لهما.

فاضطرب عند سماع هذه الكلمة، ونهض من مكانه وتمشى قليلاً ثم ألقى بقبعته المبللة بالماء على سريره، وظل يعبث بشعر رأسه، فيشده حيناً، ويمسحه أخرى، وهي تتبعه بنظراتها لتفحص صورة نفسه المرتسمة على وجهه، ثم جلس على المائدة القائمة في وسط الكوخ، وظل يقول بينه وبين نفسه بصوت ضعيف متهدج: رب، إني وإن كنت رجلاً جاهلاً فدمًا لا أستطيع أن أفهم حكمتك في حرمان هذين الولدين البائسين من أمهما، إلا أنني معترف بوجود تلك الحكمة لا أنكرها، ولا بدّ أن الذين يعلمون أكثر مما أعلم يفهمون من شئونك وتصرفاتك فوق ما أفهم!

نعم، إني فقير مسكين أعيش تحت رحمة المصادفات والاتفاقات، وربما مر عليّ وعلى أولادي أيام لم نجد فيها ما نأتمم به، ولكن ماذا أصنع وقلبي يتألم لحال هذين اليتيمين الصغيرين أكثر مما يتألم من الجوع والسغب؟

ثم التفت إلى زوجته وقال لها: إني متألم جدًّا يا ماري، ويخيل إليّ أنّ روح تلك المرأة المسكينة واقفة الآن أمام هذا الباب تقرعه وتضرع إلينا أن نأخذ ولديها إلينا، ونكفلهما من بعدها، ولكن كيف العمل يا إلهي؟ فقالت: إني أكاد أسمع هذا الصوت الذي تسمعه يا فيليب! وإن ألمي عظيم كألمك، فصمت هنيهةً ثم انتفض انتفاضةً شديدةً ودنا منها وقال لها: ألم يمت لنا طفلان في العامين الماضيين يا ماري؟ قالت: بلى. قال: ماذا كنا نصنع لو أنّهما بقيا حيين حتى اليوم؟ قالت: لا شيء سوى أننا نفرز إلى الله في أمرهما. قال: فلنفرز إلى الله في أمر هذين الطفلين اليتيمين، وكأنّ ولدينا لا يزالان حيين حتى اليوم، أو كأنهما بعثا من قبرهما بعد موتهما.

اذهبي إليهما يا ماري وأحضريهما، فربما استيقظا بعد هنيهةٍ من نومهما فرأيا منظر أمهما الميتة في فراشها فماتا خوفًا ورعبًا.

النظرات

انذهبي إليهما واحمليهما برفقٍ وهدوءٍ بدون أن توقظيهما وأضجعيهما على فراش
ولدينا، فسيكون منظرهم جميعاً جميلاً جداً حينما يستيقظون من نومهم وينظر
بعضهم في وجوه بعض، وحرام عليّ النبيذ واللحم بعد اليوم لأستطيع أن أقوم بنفقة
هذه الأسرة الكبيرة التي أصبحت سيدها وعائلها، انذهبي يا ماري وثقي أنّ الله سيملاً
علينا بيتنا خبزاً وفحماً ببركة هؤلاء الأطفال الطاهرين.

فتهلل وجهها بشراً وسروراً، ونهضت من مكانها ومشت إلى مضجع الأطفال فرفعت
عنهم الغطاء، ونظرت إلى زوجها صامتة لا تقول شيئاً، فما وقع نظر «فيليب» على هذا
المنظر الغريب حتى استطير فرحاً وسروراً، وهرع إلى زوجته واحتضنها إلى صدره وقال
لها: ما أشرف قلبك يا ماري!

يا سكان القصور: ليتكم من سكان الأكواخ، لتستطيعوا أن تكونوا من الراحمين
المحسنين.

الضمير

أتدري ما هو الخلق عندي؟

هو شعور المرء أنه مسئول أمام ضميره عما يجب أن يفعل.

لذلك لا أسمى الكريم كريماً حتى تستوي عنده صدقة السر وصدقة العلانية، ولا العفيف عفيفاً حتى يعف في حالة الأمن كما يعف في حالة الخوف، ولا الصادق صادقاً حتى يصدق في أفعاله صدقه في أقواله، ولا الرحيم رحيماً حتى يبكي قلبه قبل أن تبكي عيناه، ولا المتواضع متواضعاً حتى يكون رأيه في نفسه أقل من رأي الناس فيه.

التخلق غير الخلق، وأكثر الذين نسميهم فاضلين متخلقون بخلق الفضيلة، لا فاضلون؛ لأنهم إنما يلبسون هذا الثوب مزانعة للناس، أو خوفاً منهم، أو طمعاً فيهم. فإن ارتقوا عن ذلك قليلاً لبسوه طمعاً في الجنة التي أعدها الله للمحسنين، أو خوفاً من النار التي أعدها الله للمسيئين.

أما الذي يفعل الحسنة لأنها حسنة، أو يتقي السيئة لأنها سيئة، فذلك من لا نعرف له وجوداً، أو لا نعرف له مكاناً.

لا ينفع المرء أن يكون زاجره عن الشر خوفه من عذاب النار؛ لأنه لا يعدم أن يجد بين الزعماء الدينيين من يلبس له الشر لباس الخير فيمشى في طريق الرذيلة، وهو يحسب أنه يمشى في طريق الفضيلة، أو خوفه من القانون؛ لأن القوانين شرائع سياسية وضعت لحماية الحكومات لا لحماية الآداب، أو خوفه من الناس؛ لأن الناس لا ينفرون من الرذائل، بل ينفرون مما يضر بهم — رذائل كان أم فضائل — وإنما ينفعه أن يكون ضميره هو قائده الذي يهتدي به، ومنازه الذي يستنير بنوره في طريق حياته.

وما زالت الأخلاق بخير حتى خذلها الضمير وتخل عنها، وتولت قيادتها العادات والمصطلحات، والقواعد والأنظمة، ففسد أمرها، واضطرب حبلها، واستحالت إلى صورٍ

النظرات

ورسوم، وأكاذيب والأعيب. فرأينا الحاكم الذي يقف بين يدي الله ليؤدي صلاته وأسواط جلاديه تمزق على مرأى منه وسمع جسم رجلٍ مسكينٍ لا ذنب له عنده إلا أنه يملك صبابة من المال يريد أن يسلبه إياها، والأمير الذي يتقرب إلى الله ببناء مسجدٍ قد هدم في سبيله ألف بيتٍ من بيوت المسلمين، والفقير الذي يتورع عن تدخين غليونه في مجلس القرآن، ولا يتورع عن مخالفة القرآن نفسه من فاتحته إلى خاتمته، والغني الذي يسمع أنين جاره في جوف الليل من الجوع فلا يرق له ولا يحفل به، فإذا أصبح الصباح ذهب إلى ضريحٍ من أضرحة الأولياء، ووضع في صندوق النذور بكرةً من الذهب قد ينتفع بها من لا حاجة به إليها، والمومس التي تتصدق بنفسها ليلةً في كل عام على روح بعض الأولياء عندها أنها قد كفرت بذلك عن سيئاتها طول العام.

إلى كثيرٍ من أمثال هذه النقائض التي يزعم أصحابها ويزعم لهم كثير من الناس أنهم من ذوي الأخلاق الفاضلة، والسيرة المستقيمة.

الخُلُق هو الدمعة التي تترقق في عين الرحيم كلما وقع نظره على منظرٍ من مناظر البؤس، أو مشهد من مشاهد الشقاء.

هو القلق الذي يساور قلب الكريم ويحول بين جفنيه والاعتماض كلما ذكر أنه رد سائلاً محتاجاً، أو أساء إلى ضعيفٍ مسكين.

هو الحمرة التي تلبس وجه الحيي خجلاً من الطارق المنتاب الذي لا يستطيع رده، ولا يستطيع مد يد المعونة إليه.

هو اللججة التي تعترى لسان الشريف حينما تحدثه نفسه بأكذوبة ربما دفعته إليها ضرورةً من ضرورات الحياة.

هو الشر الذي ينبعث من عيني الغيور حينما تمتد يدٌ من الأيدي إلى العيب بعرضه أو بكرامته.

هو الصرخة التي يصرخها الأبى في وجه من يحاول مساومته على خيانة وطنه، أو ممالأة عدوه.

الخلق هو أداء الواجب لذاته، بقطع النظر عما يترتب عليه من النتائج، فمن أراد أن يعلم الناس مكارم الأخلاق فليحي ضمائرهم، وليبث في نفوسهم الشعور بحب الفضيلة، والنفور من الرذيلة بأية وسيلة شاء، ومن أي طريق أراد، فليست الفضيلة طائفةً من المحفوظات تحشى بها الأذهان، بل ملكاتٌ تصدر عنها آثارها صدور الشعاع عن الكوكب، والأريج عن الزهر.

الماضي والحاضر

عندي أنّ الفضيلة والرذيلة كالجمال والقبح أمران اعتباريان، يختلفان باختلاف الأمكنة والأزمنة، فكما أنّ الجمال في أمةٍ قد يكون قبحاً في أمةٍ أخرى، كذلك الفضيلة في عصر، قد تكون رذيلة في عصرٍ آخر.

ليست الفضائل والرذائل أسماءً توقيفية كأسماء الله تعالى لا يمكن تغييرها ولا تبديلها، وليست الفضيلة فضيلةً إلا لأنها طريق السعادة في الحياة، ولا الرذيلة رذيلةً إلا لأنها طريق الشقاء فيها، فحيث تكون السعادة في صفة فهي الفضيلة، وإن كانت صفة اللؤم، وحيث يكون الشقاء في صفة فهي الرذيلة، وإن كانت صفة الكرم.

اعتاد علماء الأخلاق في كل زمان وفي كل مكان من عهد آدم إلى اليوم، أن ينشروا لنا في كل كتاب يؤلفونه أو رسالة يدونونها جدولين ثابتين لا ينتقلان ولا يتحللان، يكتبون على رأس أحدهما عنوان «الفضائل»، وتحت كلمات الشجاعة والكرم والأمانة والوفاء والعفة والمروءة والصدق والعدل والرحمة، وعلى رأس ثانيهما عنوان «الرذائل»، وتحت كلمات الجبن والبخل والخيانة والغدر والطمع والكذب والظلم والقسوة، وأرى أنه قد آن لهم يعلموا أنّ الناس اليوم غيرهم بالأمس، وأنّ أساليب الحياة الحاضرة غير أساليب الحياة الماضية، وأنّ كثيراً من الصفات التي كانت في عهد البداوة والسذاجة رذائل يحتويها الناس ويتمون بها، ويستثقلون مكانها، قد أصبحت في هذا العصر عصر المدنية المادية المؤسسة على المنافع والمصالح، حالة واقعة مقررة في نظام المجتمع البشري، وأسساً ثابتة تبني عليها جميع أعماله وشئونه. فلا بد للناس منها، ولا غنى لهم عنها، ولا مندوحة لهم إن أرادوا أن يخوضوا معترك الحياة مع خائضيه من أن يتعلموها تعلمًا نظاميًا، ويدرسوها مع ما يدرسون من علوم الحياة التي يتوقف عليها نظام عيشهم ويتألف منها شأن سعادتهم وهنائهم.

النظرات

كان الكرم فضيلة يوم كان الناس يحفظون الجميل لصاحبه، ويعرفون له يده التي أسداها إليهم، فإذا هوى به كرمه في هوة من هوى الفقر لا يعدم أن يجد من بين الذين أحسن إليهم أو عظم في نفوسهم شأن إحسانه، من يمد إليه يد المعونة ليستنقذه من شقائه، أو يرفهه عليه. أما اليوم وقد أنكر الناس الجميل، واستثقلوا حمله على عواتقهم، بل أصبحوا يشمتون بصاحبه يوم تزل به قدمه، ويصبون على رأسه جميع ما في كتب المترادفات من أسماء الجنون وألقابه، فليس الكرم فضيلةً، وليس من الرأي الدعاء له، والحض عليه.

وكانت الرحمة فضيلة يوم كان الناس صادقين في أحاديثهم عن أنفسهم فلا يعترف بالبؤس إلا البائس، ولا يلبس القديم إلا من عجز عن لبس الجديد. أما اليوم وقد نلت النفوس وسفلت المروءات، فلبس ثوب الفقر غير الفقير، وانتحل البؤس غير البائس، وأصبح نصف الناس كسالى متبطلين لا عمل لهم إلا اللجوء إلى ظلال القلوب الرحيمة يعتصرونها ويحتلبون درتها حتى تجف جفاف الحشف البالي، فالرحمة هي الفقر العاجل، والخسران المبين.

وكانت الشجاعة فضيلةً يوم كان الناس ينصرون الشجاع ويؤازرونه، ويتبعون خطواته في طريقه التي يذهب فيها، فلا يتخلون عنه ولا يخذلونه حتى يتم له الظفر الذي يريد، أما اليوم وقد فترت همم الناس، ووهت عزائمهم، وماتت في نفوسهم الحفائظ والغير، ووكل كل أمره إلى صاحبه، فإن رأوه قائماً بدعوة وطنية أو اجتماعية أغروه بالمضي فيها، ثم وقفوا على كذب ينظرون ماذا يفعل، فإن ظفر هتفوا له، وانحدروا إليه يقاسمونه الغنيمة التي غنمها، وإن فشل خذلوه، وتكروا له، فالشجاعة جنون لا يجد صاحبها من ورائها إلا التهلكة والشقاء.

وكانت القناعة فضيلةً يوم كان الفضل هو الميزان الذي يزن به الناس أقدار الناس وقيمهم، ويوم كان الفقر مفخرةً للشريف إذا عفت يده، وعزفت نفسه، والغنى معرفةً للذنيء إذا سفلت مساعيه وأغراضه. أما اليوم وقد مات كل مجدٍ في العالم إلا المجد المالي، وأصبح الناس يتعارفون بأزيائهم ومظاهرهم، قبل أن يتعارفوا بصفاتهم وأعمالهم، فالقناعة ذل الحياة وعارها، وبؤسها الدائم، وشقاؤها الطويل.

وكان الغضب رذيلةً يوم كان الناس يعرفون فضيلة اللحم ويقدرونها قدرها، ويطأطئون رءوسهم إجلالاً لصاحبها. أما وقد أصبح الناس أشراً يحملون شرورهم على كواهلهم، ويدورون بها في كل مكان يطلبون لها رأساً يصبونها عليه، ولا يعجبهم

مثل الرأس الضعيف المتهاك الذي لا يحسن الزيادة عن نفسه، فلا خير في الحلم، والخير كل الخير في الغضب.

الحياة معترك أبطاله الأشرار، وأسلحتهم الرذائل، فمن لم يحاربهم بمثل سلاحهم هلك عند الصدمة الأولى.

يجب أن يكون الناس جميعاً إما فضلاء ليسعدوا بفضيلتهم، أو أدنياء ليتقي بعضهم بأس بعض، أما أن يتقلد سوادهم سلاح الرذيلة، والزر القليل منهم سلاح الفضيلة، وهو أضعف السلاحين وأوهابهما، فليس لذلك إلا معنى واحد؛ هو أن يهلك أشرف الناس وفضلاؤهم في سبيل حياة أدنيائهم وأندالهم.

إنَّ الدعاء إلى البر والإحسان، والرحمة والشفقة، والعدل والإنصاف، والصدق والإخلاص في هذا العصر، إنما هو حباله ينصبها الأقوياء الماكرون للضعفاء الساذجين ليخدعهم بها عن مائدة الحياة التي يجلسون عليها، فيستأثرون بها من دونهم، فلا يدعو الداعي إلى الكرم إلا لينتقل ما في جيوب الناس إلى جيبه، ولا إلى العفو إلا ليصيب بشره من يشاء دون أن يناله من الشر شيء، ولا إلى القناعة إلا ليقفل من سواد المزاحمين له على أعراض الحياة ومطامعها، ولا إلى الصدق إلا ليمتدح وحده بثمرات الكذب ومزايها. كلنا يكذب، فلم يعيب بعضنا بعضاً بالكذب والتلفيق؟ وكلنا يبسم لعدوه وصديقه ابتساماً واحدة، فلم نستنكر الرياء والمصانعة؟ وكلنا يطمع في أن تكون له وحده جميع خيرات الأرض وثمراتها، فلم نستفزع الطمع والجشع؟ وكلنا يتربص بصاحبه الغفلة ليختله عما في يده، فلم نشكو من الظلم والإرهاق؟

إننا لا نفعل ذلك إلا لأننا نريد أن نستخدم الفضيلة في أعراضنا ومآربنا كما كان يستخدم رجال الدين الدين في الأعصر الماضية.

يجب أن يتعلم الطفل من أول يوم يجلس فيه أمام مكتب مدرسته أن الموجود في الحياة غير الموجود في الكتب، وأنَّ قصص الفضائل التي يقرؤها ونوادير المروءات والكرم والإيثار، وأحاديث الشهامة والشجاعة وعزة النفس وإبائها، إنما هي روايات تاريخية قد مضت وانقضت عهدا، حتى لا يصبح ناقماً على العالم يوم ينكشف له وجهه، ويرى سواته وعوراته، وحتى لا يضيع عليه عمره بين التجارب والاختبارات.

وليت الذين يعرفون من شئون الرذائل ودخائلها فوق ما أعلم يضعون للناس كتاباً مدرسياً على نمط كتب التاريخ يوضحون لهم فيه كيف يكذب التاجر، ويغش الصانع، ويلفق المحامي، ويدجل الطبيب، ويختلس المرابي، ويرأى الفقيه، ويصانع

النظرات

السياسي، ويتقلب الصحافي، ثم يقولون له: هذه هي الحياة، وهذا هو ما يجري فيها، فإن أردتها على علاتها فذاك، أو لا، فدونك مغارة موحشة في قمة الجبال فعش فيها وحيداً بعيداً عن العالم وما فيه، وكل مما تأكل حشرات الأرض، واشرب مما تشرب منه، حتى يوافيك أجلك.

الشر لا يقاوم إلا بالشر، والظلم لا يدفع إلا بالظلم، وحامل السيف لا يغمده في غمده إلا أمام حامل سيفٍ مثله، والسييل الجارف لا يقف عن جريانه إلا إذا وجد في وجهه سدّاً يعترض طريقه، والظالم لا يظلم إلا إذا وجد بين يديه ضعيفاً، والمحتال لا يحتال إلا إذا وجد أمامه غبيّاً، والناس لا يتحامون ولا يتحاجزون ولا يأمن بعضهم بأس بعضٍ إلا إذا برزوا جميعاً في ميدانٍ واحدٍ يتقلدون سلاحاً واحداً من نوعٍ واحد.

من أراد الفضيلة للفضيلة فسبيلها المقدس الشريف معروفٌ لا ريبة فيه، فليسلكه كما يشاء، ومن أرادها على أن تكون وسيلةً من وسائل العيش في عصر مثل هذا العصر، وناس مثل هؤلاء الناس، فليعلم أنه قد أخطأ الطريق، وأضل السبيل.

ما أجمل الفضيلة وما أعذب مذاقها وما أجمل العيش في ظلالها، لولا أن شرور الأشرار وويلاتهم قد حالت بيننا وبينها، فرحمة الله عليها، ووأسفا على أيامها وعهودها!

الشيخوخة المتمردة

حدث منذ عهد قريب أنّ أحد الوجهاء الريفيين كان يختلف إلى أسرة كريمة ليخطب إليها فتاةً من فتياتها لابنه، ثم اتفق له أن وقع نظره على تلك الفتاة عرضاً فشغف بها حباً وخطبها لنفسه، فلم يرَ أهلها مانعاً من أن يزوجها منه على تقدم سنه وإدبار أمره؛ لأنه أكثر من ابنه ملاً، وأوسع جاهاً وسلطاناً، فكانت نتيجة ذلك أن هجر الابن منزل أبيه هجرةً لا رجعة له من بعدها؛ لأنه كان يحب الفتاة حباً جمّاً، وأصاب الفتاة زهول شديد لا يزال ملازماً لها حتى اليوم، وأصبح الشيخ حزيناً بائساً؛ لأنه أصبح بلا زوجة ولا ولد.

سمعت بهذه الحادثة فتألمت لها كثيراً، ثم قرأت حادثةً أخرى وقعت في فرنسا في العام الماضي سأقصها عليك لتوازن بين الحادثتين كما وازنت، وتستنتج منهما ما استنتجت.

فجعت سيدة اسمها «مارجريت بونفيل» بوفاة زوجها وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها، وكانت امرأةً بارعة الجمال، رائعة الحسن، لا يراها الرائي حتى يخيل إليه أنها الكوكب المشبوب رونقاً وبهاء، وأنها لا تزال في مستهل العقد الثالث من عمرها. فاستوحشت لوفاة زوجها استيحاشاً شديداً، وبدأت تختلف إلى بعض الأندية العامة علّها تروح عن نفسها وحشتها وكآبتها، فاتصلت هناك بفتى من نبلاء الفتيان أعجبها منه جمال صورته وعذوبة أخلاقه وحلاوة سمره ورقة آدابه، فأحبته وافتنتت به. وأضمرت في نفسها أن تتذرع بكل ما تعرف من الوسائل للزواج منه، وإن كان أصغر منها سنّاً بنحو عشر سنين، فلم تزل تتودد إليه، وتستدني قلبه، حتى نزلت من نفسه المنزلة التي تريدها. وكانت إذا جلست إليه للحديث معه يرد على لسانها كثيراً ذكر ابنتها التي خلقتها من زوجها المتوفى، فكان يخيل إليه أن تلك الابنة طفلة في الخامسة أو

النظرات

السادسة من عمرها، حتى زارها في منزلها يومًا من الأيام فحمل معه لطفلتها هدية من اللعب التي يحبها الأطفال ويطربون لها، فلما وقع نظر مرجريت عليه وعلى ما يحمل ضحكت وقالت: ما هذا الذي تحمل؟ قال: إنها هدية لماري أريد أن أقدمها إليها، وأين هي؟ فأرادت العبث به وقالت له: إنك تجدها في الجهة الشرقية من الحديقة على شاطئ الجدول، فإذهب إليها وقدم لها هديتك بنفسك.

فذهب حيث أشارت، فراعته أنه لم يجد أمامه طفلةً في السادسة من عمرها كما كان يظن، بل فتاةً كاعبًا رائعة الجمال في السادسة عشرة، فوقف أمامها موقف الحائر الذاهل لا يدري ماذا يفعل، ولا ماذا يقول، حتى رنت من ورائه ضحكة مرجريت، وكانت قد تبعته من حيث لا يشعر، فافرض جبينه عرقًا، وتقدمت مرجريت نحو ابنتها وقالت لها: أقدم لك يا ماري صديقي جورج الذي حضر اليوم ليهديك حصانًا خشبيًا جميلًا، فهل تحسنين ركوب الخيل الخشبية؟ فابتسمت ماري وفهمت القصة، فأثرت في نفسها خجل جورج وارتباكها، فمشت إليه ووضعت يدها في يده وقالت له: أشكر لك هديتك يا سيدي، وأتقبلها منك باغتناب وسرور، وأعدك أنني سأحفظها لك عندي تذكيرًا دائمًا لا أنساه، فسري عنه ما لحقه من الخجل، وجلسوا جميعًا يتحدثون ويسمرون، ومر لهم أطيب يوم مر لأحدٍ حتى أظلم الليل، فاستأذن جورج وعاد إلى منزله.

وأصبح بعد ذلك يختلف إلى منزل مرجريت لا من أجل الأم وحدها، بل من أجل الأم والبنت، حتى حضر صباح أحد الأيام، وكانت الأم قد خرجت لبعض شأنها، فوجد ماري وحدها، فشعر في نفسه بشيء من الارتياح لم يكن يشعر بمثله من قبل، وكأنه كان يتمنى أن يجدها خاليةً فوجدتها، وكانت جالسةً على شاطئ الجدول في المكان الذي رآها فيه أول ما رآها، فجلسا معًا يتحدثان حديثًا طويلًا ذهبًا فيه مذاهب مختلفة، حتى أشرفا على ذلك المورد العذب من حديث الحب، فورداه، فإذا كل منهما يضم لصاحبه من الوجد فوق ما تضرم الأئدة والقلوب. وإنهما لمضطجعان وجهًا لوجه على ذلك البساط الأخضر الجميل ضجعةً يتمنى المصور أن يراها في رسمها؛ فيرسم صورة السعادة الكاملة التي يفتش عنها الناس جميعًا فلا يجدونها، إذ وقفت بهما الأم من حيث لا يشعران، فراهما منظرهما، وخيل إليها أنهما يتحدثان في شأن غير الشأن الذي يأخذان فيه عادةً أمامها، فأصغت إليهما، فألمت بطرفٍ من حديثهما، فدارت بها الأرض الفضاء دورةً كادت تصعق فيها، وتمثل لها أن صرح حياتها الشامخ العظيم قد خر بين يديها دفعةً واحدة، فثارت من حولها عبرةً قائمةً حجت عن عينيها كل شيء فألمست

الشيخوخة المتمرده

من مكانها أملاًساً، ومشت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى غرفتها فتهافتت على فراشها وبكت ما شاء الله أن تفعل حتى هدأ بعض ما بها. فمسحت عبرتها بيدها فإذا المرأة أمامها، وإذا شعراتٌ بيض سانحات في رأسها تهتف بها أن انقضى عصر شبابك أو كاد، وقد خطوت الخطوات الأولى إلى شيخوختك، فأخلي مكانك لابنتك، فهي أولى به منك، وحسبك من السعادة أن تفرحي لفرحها، وتهنئي لهنائها. واعلمي أنَّ للطبيعة حكماً قاسياً لا يختلف عليه مختلف ولا يتمرد عليه متمرّد إلا هلك. ومرت بها على حالتها تلك ساعة كانت عواطف قلبها ونوازعه تعترك فيها اعتراضاً، وكان يميل بها الميزان نحو نفسها مرة، فتثور ثائرتها، وتأبى إلا أن تتمتع بالحياة الطيبة كما يتمتع بها أمثالها، ونحو ابنتها أخرى، فتلين عريكتها، ويسلس قيادها وتقول في نفسها: إنها أولى به مني؛ لأنه خلق لها وخلقت له حتى غلبت نزعة الخير فيها على نزعة الشر، فخرجت من غرفتها باسمه متطلقة حتى وصلت إلى مكانهما، فرأتها مستغرقتين في شأنهما الذي كانا فيه لا يشعران بشيءٍ مما حولهما، فصاحت بهما: أنتما هنا يا ولدي؟! فاضطربا إذ رأياها فابتسمت لهما ووضعت يدها على أيديهما وعادت بهما إلى غرفتها، وجلست تتحدث إليهما حديثاً طويلاً انتهى بعقد الخطبة بينهما. وما هي إلا أشهر قلائل حتى زُفَّت إليه. وولدت لهما بعد عام واحد طفلة كان نصيبها ذلك الحصان الخشبي الذي أهدها أبوها لأمها منذ عامين حين ظن أنها طفلة في السادسة من عمرها.

وكانت قد بقيت بقيةً من مرارة الألم في أعماق قلب مرجريت لم تزل تتضاءل شيئاً فشيئاً حتى رن في أذنها يوماً من الأيام صوت حفيدتها تدعوها «جدتي» فكان هذا آخر عهدها بها.

وكذلك استطاعت مرجريت أن تعيش بعد ذلك سعيدة هانئة في ظل سعادة ابنتها وهنائها.

ذلك ما فعل الرجل في السبعين من عمره، وهو يخطو إلى القبر خطوات حثيثة، وهذا ما فعلت المرأة وهي نصفٌ لا إلى الشيخوخة ولا إلى الشباب، فجوزي هو على تمرده على الطبيعة وخروجه عن سنتها شر الجزاء، وجوزيت هي على تعقلها ورزانتها وتأدبها بأدب الحياة أحسن الجزاء.

عجائز بوشنج

القاعدة المطردة في هذا البلد أنّ الرجل إذا ابتسم له دهره من الأيام فنقله من أرض الخصاصة والفقر إلى سماء الثروة والغنى، بنى بينه وبين ماضيه سدًّا محكمًا لا تنال منه المعاول، ولا تعصف به العواصف، ثم ألقى وراء ذلك السد جميع متعلقات ذلك الماضي، زيه وهيأته ولغته، ولهجته، ومناخه ومسكنه، وعاداته وأخلاقه، وأصحابه وعشراءه، وجميع صلاته وعلائقه، ولو استطاع أن يلقي بالأثرين الوحيدين الباقيين له: صورته واسمه لفعل.

يريد أنه قد أصبح إنسانًا غير ذلك الإنسان الأول، لا صلة له به، ولا شأن له معه، وأنه قد خلق خلقًا جديدًا.

إنها لخلّة رديئة جدًّا ما رأيت في الخلال أقبح منها.

إنه يفعل ذلك؛ لأنه يعتقد أنّ الفقر عيب وعار، والفقر ليس بعيب ولا عار. فإن كان لا بد له أن يرى ذلك فليعلم أنه قد قضى على أبويه وأهله وعشيرته وأصدقائه، بل على السواد الأعظم من أمته، بل على نفسه أيضًا؛ لأنه قضى عصر شبابه — والشباب هو الحياة من مبدئها إلى منتهاها — في الفقر والخصاصة، والعدم والإقلال.

ولا أدري ماذا يكون شأنه غدًا إذا استرد الدهر هبته منه؟ وكثيرًا ما يسترد الدهر هباته وعطاياه، بل لا يكاد يهب هبة، أو يمنح منحة حتى يستردها. عذرتُهُ في ثوبه الذي خلعه، وقلت: قد لبس لكل حالة لبوسها، وفي داره التي هجرها، وقلت: لا بدّ أن يكون هناك فرق بين حياة السعة وحياة الضيق، وفي لهجته التي غيرها؛ لأنه يعيش في قوم غير القوم الذين كان يعيش فيهم، وفي خده الذي صَعَّرَهُ وصدّره الذي أبرزه، وأنفه الذي شمخ به؛ لأن للثروة طغيانًا كطغيان الشراب، لا سبيل إلى دفعه والخلاص منه. ولكنني لا أستطيع بحالٍ من الأحوال أن أعذره في زوجه التي طلقها واستبدل بها سواها.

النظرات

إنها رفيقة حياته، وعشيرة صباه، وشريكته في سرائه وضرائه، ويسره وعسره، وشبعه وجوعه، وريه وظمئه، وأحسب أنها كانت إذا خلت بنفسها وخلًا لها وجه السماء بسطت يديها بالدعاء إلى الله تعالى أن يبدل عسره يسرًا، وضيقه سعةً، وشدته رخاءً، فليس من الرأي ولا من الوفاء أن يخلعها فيما يخلع من أثوابه وأرديته، وأن يلقيها وراء ذلك السد كما يلقي نعله وأداته.

إنها شاركته في شدته فيجب أن تشاركه في رخائه، واحتملته والدهر مدبرٌ عنه، فيجب أن يحتملها والدهر مقبلاً عليه، وأقرضته الصبر على عشرته، فيجب أن يوفيه الصبر على عشرتها إن كان يرى أنها عبءٌ ثقيلٌ عليه.

أريد أن يتمنى النساء جميعاً لأزواجهن دوام الفقر والفاقة حتى لا يستبدلوا بهن يوم يجدون السبيل إلى ذلك؟

إنهن يتمنين ذلك فعلاً، بل يسعين له سعيهن؛ لأنهن يجدن الأمان على أنفسهن في ضاحية الفقر أكثر مما يجدنه في ظلال الغنى، فيا للفضاعة والهول! ويا للمعيشة النكدة المريرة! ويا للشقاء الذي يهدد الحياة الزوجية وينذرهما بالحو والفناء!

حدثني من أتق به أنه دعي إلى وليمة أقامها أحد أولئك الحديثي النعمة، فلما قضاوا ليلتهم وانصرفوا لفت نظرهم منظر امرأة بائسة واقفة تحت جدار البيت تتحدث إلى بعض الناس وتقول لهم: إنها سيدة هذا البيت بالأمس، وإن زوجها طلقها وطردها هي وطفلها الصغير في اليوم الذي أنعم الله فيه عليه بنعمة الغنى، وليته صنع بها ما يصنع الكريم بأهله فكفأها مؤونة العيش، وحماها عادية الشقاء، بل تركها في قريتها وحيدةً منقطعةً، لا يعود عليها بقليل من المال ولا بكثير، ولا ذنب لها ولا لولدها عنده سوى أنه أصبح ذا زوجة جديدة وولد جديد. وقالت: إنها تحاول منذ ساعتين أن تدخل المنزل لتقبله وتسأله المعونة والمساعدة فيمنعها الخدم.

إنه لموقف مؤلمٌ جداً أن تقف امرأة على باب البيت الذي كانت سيدته بالأمس موقف السائل المتكفف، فلا تجد من يمنحها ما يمنح السائلين المتكفين.

لا يجد المرء لذة الطعام إلا إذا ذكر الجوع، ولا لذة الماء إلا إذا ذكر الظمأ، ولا لذة السعادة إلا إذا تمثل أمام عينيه عهد الشقاء، فما أحوجهم إذا انتقل من عذاب الفقر إلى نعيم الغنى إلى أصدقاء عهده الأول وعشرائه، ليجلس إليهم من حين إلى حين، ويتحدث معهم عن ماضيه وحاضره، فيشعر بلذة الانتقال من حال إلى حال. وما أحوجهم إلى زوجة التي قضى معها عهد شقائه أن تبقى معه في عهد سعاده ليرى في مرآة وجهها صورته القديمة والحديثة، فيعلم حين يقارن بينهما أن فضل الله عليه كان عظيمًا.

عجائز بوشنج

وتعجبني كثيراً قصة خالد بن برمك جد البرامكة، وكان رجلاً أعجمياً من قرية من قرى فارس اسمها «بوشنج»، وقد إلى بغداد وحظي عند الخليفة، فولاه الوزارة، فلما ركب في الموكب الذي اعتاد أن يركب فيه الوزراء يوم العهد إليهم بذلك المنصب العظيم، وقف الناس له صفوفاً على جانبي الطريق، وأطل عليه النساء من نوافذ الدور والقصور، وهو مطرق واجم، فقال له أحد أصدقائه وكان يسير بجانبه: ألا ترى هؤلاء النساء الجميلات المشرفات عليك من نوافذ قصورهن؟ قال: نعم أراهن، ولكنني كنت أفضل أن أرى بدلاً منهن عجائز «بوشنج».

أي أنه كان يتمنى أن العيون التي رأته بالأمس وهو وضع، تراه اليوم وهو رفيع.

الأجواء

ما زلت مذ حدثت تلك الحادثة الكبرى التي رجف لها قلب مصر، وسالت لها دموع الفضيلة حزناً وأسى، وتحدث المتحدثون عن أولئك الفتيات الساقطات اللواتي يعشن في تلك السجون العميقة التي يسمونها بيوتاً عيش البؤس والفاقة، أعجب لهن ولأمرهن، وأقول في نفسي: ليت شعري لم يرضين لأنفسهن هذه الحياة الشقية النكدة التي لا يجدن فيها علالةً من العيش يتعللن بها عما فقدن من شرفهن وكرامتهن، ولم يسطبرن على ظلم ذلك الرجل الجبار الذي يستبد بهن، ويستأثر بجميع شئونهن ومصالحهن، ويسوقهن بين يديه سوق الراعي ماشيته؟ ولم لا يهربن من وجهه ويذهبن في مذهب الأرض حيث شئن يطلبن لأنفسهن الحياة في جو مطلق؟ والأجواء الحرة المطلقة كثيرة، وأسباب العيش فيها متنوعة، وما على وجه الأرض جوُّ أسوأ من جوِّهن الذي يعشن فيه فيخفن أن يصرنَ إليه. ولم أصدق ما يقوله بعض الناس في تأويل ذلك من أن ذلك الرجل الجبار قد ضرب حولهن نطاقاً من بأسه وقوته فلا سبيل لهن إلى اختراقه، ففي البلد حكومة نظامية لا تسمح بقيام حكومة أخرى بجانبها. أو أنه وضع في أعناقهن أغلاً من الديون وليس في وسعهن أن يبرحن مكانهن حتى يؤدينها، فإن من لا يبالي بحق الله ولا حق عرضه لا يبالي بحقوق الناس. ولم أزل في حيرتي هذه حتى قرأت بالأمس قصةً وقفت منها على سر هذا الخلق الغريب في النساء، فأنا أروي لك خلاصتها لتقف منها على مثل ما وقفت.

توفيت زوج أحد الدوقات العظام في فرنسا فحزن عليها حزناً شديداً؛ لأنها كانت أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه. فكان يروح عن نفسه بالاختلاف إلى الأندية الخاصة والعامّة حتى ملها وسئمها. فمر بخاطره يوماً من الأيام أن يزور حي «مونمارتر»،

النظرات

وهو القرارة التي تنصب فيها جميع قاذورات باريس الاجتماعية وفضلاتها، فظل سائرًا بمركبته يستطرق من زقاقٍ إلى زقاقٍ ومن معبرٍ إلى معبرٍ حتى وقف بباب خانٍ في زقاقٍ مظلم مهجور سمع من داخله ضوضاء عظيمة تكاد تتصدع لها أركانها، فأنحدر إليه وأطل من بابه فوق نظره على طوائف كثيرة من الصناع والعمال والغوغاء والمتبطلين والمتشردين وأشباه اللصوص والمجرمين، ما بين قائم وقاعد، وصائح وهاتف، وممسكٍ قدحه بيده يجرع منه الجرعات الكبار ويصرخ صراخ المجانين، ولا يبط بالأرض قد بلغ منه السكر مبلغه فكبه على وجهه، وراقصٍ يوقع حركات قدميه على نغمة شبّابة ينفخ فيها آخر. وقد عقدت الأبخرة المتصاعدة في سماء الحان سحباً متكاثفةً يرى الرائي من خلالها بعد لأيٍ مائدةً خشبيةً مستديرةً في وسط المكان ترقص عليها فتاة بائسة عارية الثياب إلا قليلاً، وتنتثر على الناس نثاراتٍ من الورق الرقيق الملون، والناس من حولها طائرون بها فرحاً، يداورونها، ويعابثونها، ويخاطبونها بأقبح ما خاطب به أحدٌ أحدًا. وربما مد بعضهم إليهم يده فجذبها من ثوبها جذباً شديداً حتى يكاد يزلقها من مكانها، أو دفعها في صدرها بعصاه فألمها، وهي تبتسم مرة وتقطب أخرى. فلم يدِر الرجل أهو في مارستان من مارستانات المجانين، أم في حظيرةٍ من حظائر الوحوش الضارية، ولكنه رأى على كل حال منظرًا غريبًا لم ير مثله قط، وسكن إليه، وكذلك الملول، يعجبه كل ما يطرد عن نفسه عادية الملل ولو كان منظر الجحيم. فانتبذ في الحال مكاناً قصياً، وجلس إلى مائدةٍ منفردة، وألقى نظره على تلك الفتاة الراقصة فإذا هي رائعة الجمال، إلا أنه جمال مبعثر مذال، كما يعثر العاثر باللؤلؤة الثمينة بين القمامات المجتمعة. فلا زال ناظرًا إليها لا يقلع حتى فرغت من رقصتها، ونزلت تدور بعينها علها تجد من يدعوها إلى لقميةٍ تسد جوعتها، أو كأسٍ تبلُّ بها غلتها، حتى مرت على مقربة من الدوق، فدعاها للجلوس معه، فاستطيرت فرحاً وسروراً؛ لأنها لم ترَ قبل اليوم زائراً مثله في فخامة هيئته، وجلال منظره.

وأخذ يتحدث إليها ويسائلها عن نفسها، فعلم أنها تكابد أشد ما كابد امرؤٌ قط في حياته من بؤسٍ وشقاء، وقد سمع في صوتها نغمةً تختلف بعض الاختلاف عن تلك النغمة الفاجرة الوقحة التي يسمعها السامعون من أفواه النساء الفاجرات، فوقع في نفسه أنه إن أنقذ تلك الفتاة المسكينة المتألمة من بؤسها وشقائها فقد أحسن إليها وإلى الإنسانية إحساناً عظيماً. فسألها ألها بأحدٍ من الناس صلة من زواجٍ أو مخالفةٍ؟ فأطرقت برأسها وأجابت أن لا، فعرض عليها رأيه الذي رآه لها، فاستطارت به فرحاً وسروراً، وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى كانت بجانبه في مركبته بها فسار إلى منزله.

وهناك تغير من شأنها كل شيء، فأصبحت تلك الفتاة البائسة المسكينة الضاوية الصفراء ذات الأسمال البالية، والقبعة القذرة، والحذاء المرقع، سيده فخمَةٌ يتلأأ وجهها بنور العزة والكرامة، وتسيل على أعطافها مخائل النعمة والرفاهية، حتى ظن كثير من الناس أنها من نوات الشأن في الحياة، وأنَّ الدوق يوشك أن يتزوج منها.

وكان الدوق يعيش وحده في قصره لا يعاشر إلا خدمه، ولا يختلف إليه إلا القليل من أصدقائه من حين إلى حين؛ لأنه كان منقطعاً لا زوج له ولا ولد، ولا قريب ولا نسيب، فكانت «مارسيل» ملهاته التي يتلَّهى بها في وحدته، وأنسه الذي يأنس به في وحشته. وكانت هي سيده المنزل والأمره الناهية فيه، لا ينازعها في ذلك منازع. وظل الأمر بينهما على ذلك شهوراً عدة.

وكانا يخرجان أصيل كل يوم في مركبتهما إلى ضاحية المدينة يرتاضان في غاباتها وبساتينها ساعة أو ساعتين ثم يعودان، فإنهما لعائدان ليلَةً من الليالي من متزههما إذ مرت بهما المركبة على مقربة من حي «مونمارتر» فاقترحت عليه «مارسيل» أن يمرا بذلك الحي ليلها بمنظره الغربية، ومشاهده العجيبة، فأذعن لرغبتها. وظلا سائرين يخترقان شوارعه وأزقته حتى بلغا الحان الذي وجدها فيه، فطلبت إليه أن يأذن لها بدخوله لترى ما حل بأصحابه وزائريه من بعدها، فلم ير في ذلك بأساً، ودخل معها، فوجداه على هيئته التي تركاه عليها. واتجها إلى بعض الموائد المنفردة فجلسا إليها، فما وقع نظر الناس على مارسيل حتى هاجوا هياجاً عظيماً، وهتفوا لها هتافاً شديداً، وأقبلوا عليها يحيونها ويعتقونها، وهي تبسم لهم، وتعطف عليهم، وتطرب لنغمات أحاديثهم الوحشية المزعجة، ثم لم يلبثوا أن جذبوها من مكانها، وأصعدوها إلى المائدة لترقص لهم، فكأنما ثارت في نفسها ثائرة الطرب القديم، فرقصت وافتننت في رقصها ما شاءت، حتى أتمت دورها، ثم نزلت وودعتهم وداعاً لطيفاً وانصرفت هي والدوق.

وهنا بدأت تشعر بملل شديد من حياتها الحاضرة التي تحياها في قصر الدوق، حتى أصبح يخيل إليها أن هذا القصر الذي تعيش فيه إنما هو سجن، وأنَّ هذا الرجل الذي يحبها ويكرمها وينزل على حكمها في جميع ما تحب وتشتهي إنما هو سجانها، وأنَّ هذا السكون الذي يحيط بها إنما هو سكون الموت الذي يخيم في فضاء القبور. فكانت إذا خلت بنفسها تراءى لها في فضاء خيالها منظر الحان ومنظر زائريه، وموقفها فوق المائدة الخشبية بين جماعة الأشرار والغوغاء وهم يجاذبونها ثوبها، ويشدون يدها، ويصبون عليها فضلات كتوسهم، فتطرب لتلك الحياة الهائجة الثائرة، وتحن إليها حين

العاشق المفارق. ولم تزل هذه الفكرة تنمو في نفسها شيئاً فشيئاً حتى أخذت مكانها من قلبها، فعزمت على الفرار بنفسها والعودة إلى عيشتها الأولى، فنهضت من فراشها ذات ليلة والقصر ساكن هادئ قد هجع كل من فيه، فلعلت أثوابها وحلاها وألقتها على بعض المقاعد، وارتدت بدلاً منها أثوابها الأولى التي جاءت بها، وكانت لا تزال ملقاةً في بعض الغرف، وتسللت من باب القصر من حيث لا يشعر أحدٌ بمكانها، وأخذت سبيلها إلى حي مونمارتر.

وهكذا قضي عليها أن تشقى، بل هي التي قضت بنفسها على نفسها. ولقد كان أسف الرجل عظيماً جداً حينما تفقدها في صباح اليوم الثاني فلم يجدها، خصوصاً عندما رأى ثيابها وحلاها ملقاةً على بعض المقاعد وعلم أنها هي التي آثرت الفرار واختارته لنفسها، فبكاها كثيراً، وعادت له وحشته التي كان يعالجها من قبل. ومر على ذلك عام وبعض عام، وبينما هو مقبلٌ على قصره في ليلةٍ من الليالي إذ لمح على عتبة الباب امرأةً مسكينةً تئن وتتوجع، وتحاول أن تمد يدها إلى حلقة الباب لتطرقة فلا تستطيع، فدنا منها ليتبينها فإذا هي مارسيل، أو هي شبَّح متهافتٌ باقٍ منها. فلما أحست به مدّت ذراعها إليه وقالت له بصوتٍ خافتٍ ضعيف: اغفر لي ذنبي يا مولاي! فدهش لمنظرها دهشةً شديدةً، ورق لحالتها، فأمر الخدم بحملها إلى القصر، فحملوها إلى غرفتها التي كانت تنام فيها، وهي في حالة من البؤس والشقاء تذيب الأكباد، وتستدرف الدموع. ثم جلس إليها يسألها عن شأنها، فقالت: إنها مريضةٌ مدفنةٌ منذ شهورٍ عدة، وإنها قد عجزت عن أن تجد سبيلاً إلى علاجها من دائها لفقرها وفاقتها، فما زال المرض يأخذ منها مأخذه حتى مزق صدرها تمزيقاً، فلم تجد بداً من أن تأتي إليه لتستغفره من ذنبيها وتسأله أن يعينها على أمرها؛ لأنها لا تعرف في الدنيا لها راحماً سواه. فسألها لمَ فرت من قصره، وما الذي كانت تنقمه منه؟ فقالت: لا أعلم، وإنما هو قدرٌ قدره الله ولا حيلة لامرئٍ فيما قدره وقضاه. فسألها أين كانت تعيش بعد فرارها، قالت: في المكان الذي أنقذتني منه، فأبيت لشقوتي وبلائي إلا أن أعود إليه لتنفيذٍ في إرادة الله. فرثي لحالها، وأمر باستدعاء الطبيب لينظر في أمرها، فلم يستطع الطبيب أن يصنع شيئاً؛ لأنه جاء بعد فوات الأوان، وما أصبح الصباح حتى صعدت روحها إلى خالقها، وخلفت للدوق حسرةً فوق حسرته الأولى بوفاة زوجته، فلم ينتفع بحياته طويلاً بعد ذلك. لكل جوٍّ من الأجواء رائحةٌ خاصةٌ به يألّفها أصحابه ويستنيمون إليها. فحُولوا أيها الرجال بين نساءكم وبين تلك الأجواء الخبيثة، ولا تقولوا إنهن سيجزعن منها ويهجرنها حين يستنشقن رائحتها، فالرائحة الخبيثة لا يتألم منها إلا البعيد عنها.

الفتاة والبيت

الكلمة التي قرَّط بها المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطي كتاب «الفتاة والبيت»:

حضرة صديقي الكاتب الفاضل أنطوان أفندي الجُمَيْل

أهديت إليّ كتابك «الفتاة والبيت» فأهديته إلى ابنتي؛ لأنه مكتوبٌ لها ولأترابها من الفتيات الناشئات، وربما كانت وكنَّ أقدر مني ومن الرجال جميعًا على فهم مزيتته، وتقدير منزلته، فلما قرأته عادت إليّ تقول أنني لم أُهدِ إليها في حياتها خيرًا من هذا الكتاب.

سامحها الله، فقد كان فيما أهديت إليها كتاب «النظرات» فقد فضلته على كتاب أبيها، ولكن ما لها وللنظرات وأمثالها من كتب الكليات العامة والخيالات السائرة، فهي فتاة على باب المستقبل يههما أن تعرف أسباب الحياة المنظمة التي لا تستطيع فتاةً في هذا العصر أن تعيش بدونها، والتي عجز أبواها عن أن يرشداها إليها؛ لأنهما بقيت من بقايا العصر الماضي، عصر المصادفات والاتفاقات، ولا يزال عصرهما لاصقًا بهما حتى اليوم، ويعنيها أن تعلم كيف تنسج من أخلاقها وآدابها ثوبًا يغنيها جماله عن الجمال، وتعيش من عقلها وحكمتها في ثروة تقوم لها مقام ثروة المال، وكيف تدبر القليل من الرزق وتنتفع به — إن قدر لها أن تعيش عيش المقلين — وتحسن التصرف في الكثير منه وتبقي عليه — إن قدر لها حظ الكثيرين — وكيف تكون شمسًا مشرقة في أفق بيتها تضيء نفوس جميع ساكنيه، من زوجها إلى خادماتها، فتسعد بهم ويسعدون بها، وكيف تتولى أمر نفسها بيدها حتى لا يخدعها الخدم عن مالها — إن كانت ذات خدم — أو تستغني عن معونتهم إن عجزت

النظرات

عن اتخاذهم، وكيف تستنبط من ثقب الإبرة — في اليوم الذي تفقد فيه عائلها ومعينها — قطراتٍ من الرزق تقيم بها أودها، وتصون بها ماء وجهها؟
وكتابك — يا سيدي — هو الجواب عن جميع ما تطلبه، وتساؤل نفسها عنه، فلا غرو إن أعجبها وأطربها، ولا عجب إن فضلتها على كل كتاب حتى كتاب أبيها.

أشكر لك يا أنطوان تلك اليد البيضاء التي أسديتها إليّ وإلى أمّتك، وأنصح لجميع الآباء والأمهات أن يجعلوا كتابك هذا خير هدية يقدمونها إلى فتياتهم، وأن يأخذوهن بتلاوته مع كتب صلواتهن في مطلع كل شمس ومغربها، فما أحرزت الفتاة في بيتها خيراً من كتاب «الفتاة والبيت».

الأربعون

الآن وصلت إلى قمة هرم الحياة، والآن بدأت أنحدر في جانبه الآخر، ولا أعلم هل أستطيع أن أهبط بهدوءٍ وسكونٍ حتى أصل إلى السفح بسلام، أو أعثر في طريقي عثرة تهوي بي إلى المصرع الأخير هويًا.

سلامٌ عليك أيها الماضي الجميل، لقد كنت ميدانًا فسيحًا للأمال والأحلام، وكنا نظير في أجوائك البديعة الطلقة غادين رائحين طيران الحمام البيضاء في آفاق السماء، لا نشكو ولا نتألم، ولا نضجر ولا نسأم، بل نعتقد أنّ في العالم همومًا وآلامًا. وكان كل شيء في نظرنا جميلًا حتى الحاجة والفاقة، واحتمال أعباء الحياة وأثقالها، كان كل منظرٍ من مناظرك قد لبس ثوبًا قشيبًا من نسيج الزهر الأبيض، فأصبح فتنة الأنظار، وشرك الألباب!

وكان يخيل إلينا أنّ هذا الزورق الجميل الذي ينحدر بنا في بحيرتك الصافية الرائقة سيستمر في طريقه مطردًا متدفعًا لا يعترضه معترضٌ، ولا يلوي به عن طريقه لايٍ إلى ما لا نهاية لاطرده وتدفعه.

وكان كل ما نعالج فيك من آلامٍ وهموم أن يكون لنا مأربان من مأرب الحياة، فنظفر بأحدهما ويفوتنا الآخر، أو غرضان من أغراضها، فنصل إلى القريب ونبيت دون البعيد.

وكان كل ما يستدرف الدمع من أعيننا هجر حبيبٍ أو طلعة رقيبٍ، أو أرق ليلةٍ أو ضجر ساعة، أو نظرةٍ شزر يلقبها علينا بغيض، أو نفثة شر يرمينا بها حقود، ثم لا تلبث مسراتنا ومباهجتنا أن تطرد تلك الآلام أمامها كما يطرد النهر المتدفق الأقدار والأكدار بين يديه، وتسلم لنا الحياة سائغةً لا كدر فيها ولا تنغيص.

النظرات

سلامٌ عليك أيها الشبابِ الزاهبِ، سلامٌ على دوحتكِ الفينانةِ الغناءِ، التي كنا نمرحُ في ظلِّها لمرحِ الظباءِ الغفرِ في رملتها الوعناءِ، ننظرُ إلى السماءِ فيخيلُ إلينا أنها معدِّي ومرأحُ لنا، وإلى الآفاقِ البعيدةِ فيخيلُ إلينا أنها مجرى سوابقنا ومجرٌّ رماحنا، فكانَ العالمُ كله مملكتنا الواسعةِ العظيمةِ التي نسيطرُ عليها ونتصرفُ في أيِّ أقطارها شئتنا. أبكيك يا عهدَ الشبابِ، لا لأنني تمتعتُ فيك براحٍ أو غزلٍ، ولا لأنني ركبتُ مطيكتُك إلى لهوٍ أو لعبٍ، ولا لأنني ذقتُ فيك العيشَ باردَ الهواءِ كما يذوقه الناعمونَ المترفونَ، بل لأنك كنتَ الشبابِ وكفى!

أبكيك لأنني كنتُ أرى في سماءكِ نجمَ الأملِ لامعاً متلألئاً يؤنسني منظره ويطربني للأوه، وينفذُ إلى أعماقِ قلبي شعاعه المتوهجِ الملتهبِ، فلما ذهبَ ذهبَ بذهابك، فأصبحَ منظرُ تلكِ السماءِ منظرَ فلاحةٍ موحشةٍ مظلمةٍ لا يضيئها كوكبٌ ولا يلمعُ فيها شعاعٌ. أجل، لم أتمتعُ فيك بمتعةٍ من المتعِ، ولا بلذةٍ من الملاذِ، ولا نلتُ في عهدكِ مأرباً من مأربِ المجدِ أو الجاهِ، ولكنني كنتُ أوملُ وأرجو، وبذلكِ الأملُ كنتُ أعيشُ، وتحتِ ظلالِ ذلكِ الرجاءِ كنتُ أهناً وأنعمُ.

أما اليومُ — وقد بدأتُ أنحدرُ من قمةِ الحياةِ إلى جانبها الآخرِ — فقد احتجبَ عني كلُّ شيءٍ، ولم يبقَ بينَ يدي مما أفكرُ فيه إلا أن أعدتني لتلكِ الساعةِ الرهيبةِ التي أنحدرُ فيها إلى قبري.

مضي عهدُ الشبابِ وبدأتُ أختلفُ إلى الأطباءِ الثلاثة: طبيبِ العيونِ، وطبيبِ المعدةِ، وطبيبِ الأسنانِ، وتقاربتُ خطواتي فأصبحَ فرسخي ميلاً، وباعني ذراعاً، ونعى الناعونَ إليَّ كثيراً من أصحابي وأترابي؛ أي إنهم نعوا إليَّ نفسي، ورأيتُ أصدقائي الذين نشأتُ معهم في طريقي فأنكرتُ استحالةَ حالهم، وأغبرارَ وجوههم، وتحمرُّ خدودهم، وابيضاضَ شعورهم، فعلمتُ أنني أولهم، وأنهم ينكرونُ مني ما أنكروا منهم. ودعا لي الداعونَ بالقوةِ والنشاطِ، وطولَ البقاءِ، وحسنَ الختامِ؛ أي إن قوتي في هبوطِ، ونشاطي في اضمحلالِ، وسلامتي في خطرِ، وحياتي على وشكِ الانحدارِ إلى مغربها.

ومررتُ بجماعِ الشبانِ الحافلةِ بالقوةِ والنشاطِ والمرحِ والسرورِ فخيلُ إليَّ أنني غريبٌ عنهم، لا صلةَ لي بهم ولا شأنَ لي معهم، وأنني أعيشُ في عالمٍ غيرِ العالمِ الذي يعيشونَ فيه. وانتقلتُ من النظرِ في شأنِ نفسي وشأنِ مستقبلِ إليَّ النظرِ في شأنِ أولادي وشأنِ مستقبلهم؛ لأن مستقبلِ أصبحَ ماضياً، وغداً أصبحَ أمسٌ لا رجعةَ له إلى الأبدِ. وسمعتُ كلمةَ «الجد» يهتفُ بها أحفادي الصغارِ، فلم أنكرها ولم أبتئسُ كأنني معترفٌ

أنها الكلمة التي يجب أن أسمعها. ونصحتني الناصحون بالاعتقاد والتدبير إبقاء على مصلحة أولادي الفقراء، كأنهم يقولون لي: إنك موشك أن ترحل فأعد لمن وراءك من أهلك وبنيك ما يغنيهم عنك يوم يفقدون وجهك. وهدأت نفسي بعد ثورتها وجماعها، فأصبحت سمحاً كريماً، عفواً غفوراً، لا أبغض أحداً، ولا أحقد على أحد، ولا أقابل ذنباً بعقوبة، ولا إساءة بمثله، كأنني أقول في نفسي: ما لي وللعالم ولما يحويه من خير وشر وأنا مفارقه وشيكا، إن لم يكن اليوم فغداً؟ وأخذت أتحدث عن الماضي أكثر مما أتحدث عن الحاضر، لا لأن الأول أجمل من الثاني؛ بل لأن الشبيبة أجمل من الشيخوخة. وذكرت الجلسة البسيطة التي كنت أجلسها أيام الطلب في غرفتي العادية الصغيرة بين زملائي الفقراء البسطاء، فيكيثها ورثيتها ولم تُنسني إياها جلستي اليوم في منزلي الأنيق الجميل بين خير الناس أدباً وفضلاً ومجداً وشفراً؛ لأن الأولى كانت في سماء الأحلام الحلوة اللذيذة، أما الثانية ففي أرض الحقيقة المرة المؤلمة.

وكننت أنعم في صباي بكثير من الملائد الوهمية الكاذبة، فكنت أجد في نفسي غبطة عظمت حينما أجلس لمطالعة قصة ألف ليلة وليلة، أو سيرة سيف بن ذي يزن، أو حروب عنتره، أو وقائع أبي زيد، أو أساطير الجن والشياطين. وحين أوي إلى مضجعي فأرى في منامي رؤى بديعةً يجتمع لي فيها جميع ما أحب وأشتهي من مطامع الحياة ومآربها، وملذات العيش ومباهجه. وحين أختلف إلى مقابر الصالحين ومزارات الأولياء وأقف موقف الضراعة أمام حلقات أبوابهم، فأشعر بسكينة في قلبي يبعثها الأمل ويزجيها الرجاء. والآن وقد حُرمت ذلك كله منذ الساعة التي عرفت فيها أن أساطير الأولين أكاذيب وأباطيل، وأن الرؤى والأحلام هوس وجنون، وأن الأولياء والصالحين — أحياء أكانوا أم أمواتاً — في شاغلٍ بأنفسهم عن غيرهم لا يستطيعون نفعاً ولا ضرراً؛ أي إنني شقيت حين علمت، وكننت سعيداً قبل أن أعلم. وكان كل ما أفكر فيه أن أشيد لي بيتاً جميلاً أعيش فيه عيش السعداء الأمنين في مدينة الأحياء، فأصبحت وكل ما أفكر فيه الآن أن أبني لي قبراً بسيطاً يضم رفاتي في مدينة الأموات. وكننت أدهش لبلغة البلوغ، وذلاقة الخطيب، وبراعة الشاعر، وقدرة الكاتب الصائغ، ونبوغ المبتكر، وأطرب لكل عظيم وجليل مما أرى ومما أسمع، فأصبحت لا أدهش لشيء ولا أعجب من شيء؛ لأن مرآة نفسي قد صدت فلا ينطبع فيها غير الكوكب الفخم العظيم، وأين ذلك الكوكب فيما يقع عليه نظري من كواكب السماء ونجومها؟

النظرات

ما أنا بأسف على الموت يوم يأتيني، فالموت غاية كل حيٍّ، ولكنني أرى أمامي عالمًا مجهولًا لا أعلم ما يكون حظي منه، وأترك ورائي أطفالًا صغارًا لا أعلم كيف يعيشون من بعدي، ولولا ما أمامي ومَن ورائي ما باليت أسقطت على الموت أم سقط الموت علي؟! ليكن ما أرادته الله، أما ما أمامي فالله يعلم أنني ما ألمت في حياتي بمعصية إلا وترددت فيها قبل الإلمام بها، ثم ندمت عليها بعد وقوعها، ولا شككت يومًا من الأيام في آيات الله وكتبه، ولا في ملائكته ورسله، ولا في قضائه وقدره، ولا أذعنت لسُلطان غير سلطانه، ولا لعظمة غير عظمته، وما أحسب أنه يحاسبني حسابًا عسيرًا على ما فرطت في جنبه بعد ذلك. وأما مَن ورائي فالله الذي يتولى السائمة في مرتعها، والقطة في أفحوصها، والعصفور في عشه، والفرخ في وكره، سيتولى هؤلاء الأطفال المساكين وسيبسط عليهم ظلَّ رحمته وإحسانه.

وداعًا يا عهد الشباب، فقد ودعت بوداعك الحياة، وما الحياة إلا تلك الخفقات التي يخفقها القلب في مطلع العمر، فإذا هدأت فقد هدأ كل شيء وانقضى كل شيء!

أيا عهدَ الشباب وكنت تَنُدَى على أَفْيَاءِ سَرَحَتِكَ السَّلَامُ

جميع الحقوق محفوظة لشركة مركز إنسان للدراسات والاستشارات والتدريب
والطباعة والنشر.